آخر رسالة تلقاها فى حياته . ولم تمض ساعات حتى كانت قمة جبل تنريف تختفى وراء الأفق . وكانت هذه آخر مرة رأى فيها كثير من رجال الحملة أرض وطنهم !

ان أشق مهمة فى هذه الرحلة ، هى ابقاء السفن قريبا بعضها من بعض ، بالرغم من تفاوت حمولتها وسرعتها. فاذا ضاعت واحدة منها ، فهى هالكة لا محالة فى خضم المحيط اللانهائى. ولكى يتجنب ماجلان هذا الخطر وضع قبل الرحيل بالاتفاق مع بيت الهند ، نظاما خاصا لضمان الاتصال بين السفن بصورة دائمة ، فأعطيت للربابنة وقواد السفن ، التعليمات الخاصة بسير القافلة المقرر ، وأصبح على السفن جميعا أن تتبع بكل بساطة ودقة ، سفينة القيادة «ترينيداد» وهى تمخر العباب . وليس اتباع هذا الامر عسيرا فى النهار. فان فى وسع كل سفينة أن تبقى على مرأى من الأخريات ، أن سجا البحر وهدأ أو أزبد وهاج. ولكن ذلك عسير بالليل، ولأجل ذلك يجب على السفن أن تعمل بذلك النظام الخاص ، نظام الاشارات المضيئة . فعندما يغشى الليل يوضع فى مؤخرة السفينة « ترينيداد » مشعل داخل مصباح زجاجى لتقتفى السفن الاخرى آثارها ، فاذا رفع في مؤخر سفينة القيادة مشعلان ، كان على السفن الاخرى أن تبطىء فى السير، أو تتمايل فى طريقها بسبب الرياح المعاكسة ، أما المشاعل الثلاثة فمعناها أن المطر يوشك أن ينهمر وأنه يجب ضم الأشرعة الصغيرة . فاذا رفعت أربعة مشاعل ، وجب ضم القلوع كلها ..

واذا أشعلت النار على ظهر سفينة القيادة ، أو أطلقت المدافع ، كان على السفن أن تسير بحذر شديد ، لاقترابها من القيعان أو كثبان الرمل القريبة من سطح البحر. وصفوة القول ، أن النظام الذى وضعـه ماجلان يقوم على اشارات مضيئة طبقا للطوارىء المحتملة

وعلى كل سفينة أن ترد فى الحال على كل اشارة باشارة مثلها ، ليعلم القائد العام أن أوامره قد فهمت ونفذت . كما يجب على كل سفينة أن تقترب من سفينة القيادة ، قبيل المساء ، وتحيى أمير البحر بعبارة وضعت لهذا الغرض ، وتتلقى منه التعليمات المراد تنفيذها خلال الليل . وبفضل هذا الاتصال اليومى ، أصبح النظام مضمونا منذ اليوم الاول . فسفينة القيادة سائرة فى طليعـة السفن الاخرى تشـق الطريق والربابنة يطيعون أوامر القيادة دون أن ينبسوا بكلمة

غير أن هذا النظام ذاته هو الذى أزعج ربابنة السفن الاخرى ازعاجا شديدا . فان قيادة القافلة تلبث دائما فى يد رجل واحد ، وهى يد حديدية قاسية . وهذا البرتغالى الصامت الذى لا يقترب منه أحد ، العنيد فى حفاظه على سره ، يوقف الربابنة فى الصف كل يوم كأنهم جنود جدد ، ثم يصرفهم بعد أن يبلغهم أوامره !

لقد ظنوا بلا شـك ــ وهو ظن فى محله ــ أن ماجلان لم يمتنع عن الافشاء بأية معلومات عن سير رحلته وهدفها ، الا ليكتم سر الممر عن جواسيس الأعداء ، وأنه سيخرج من صمته حين يصبح فى عرض البحر ، فيدعوهم للاجتماع به على ظهر سفينته ، ويشرح لهم ، على الخرائط ، الخطة التى

حرص على اخفائها حتى تلك الساعة . ولكنهم رأوا ماجلان قد ضاعف ضمته وغموضه وعزلته . فهو لا يدعوهم الى سفينته ، ولا يسألهم رأيهم ولا يستشيرهم أبدا . وما عليهم الا أن يتبعوا علم القيادة نهارا ، ومشعل السفينة ليلا ، كما يتبع الكلب صاحبه . وقد احتمل الضباط الإسبانيون فى الايام الاولى بشىء من الصبر ، ما أبداه ماجلان من عزيمة فى قيادتهم . ولكن ، عندما لبث أميرالبحر سائرا نحو الجنوب ، فى الطريق الموازى لساحل سيراليون بافريقا ، ولم يعرج الى الجنوب الغربى نحو البرازيل .. قرر جوان دى كرتاجينا ، منذ ذلك المساء ، ان يطالب بمعرفة الأسباب الداعية الى ذلك

ولا بد أن نشير الى أن السؤال الذى وجهه دى كرتاجينا الى ماجلان لم يكن بعيدا عن اختصاصه ، لأن معظم الذين كتبوا عن هذه الرحلة ، حاولوا تبرير سلوك ماجلان بتصويرهم جوان كرتاجينا فى صورة الخائن . فان ربان أكبر سفن القافلة ، ومندوب التاج الأسبانى ، يحق له فى الواقع ان يسأل امير البحر لماذا عدل طريق السير التى رسمت من قبل ..

فما هى الأسباب التى دعت ماجلان الى تغيير طريقه ؟ هذا ما لم يعلمه أحد .. ولعله واصل السير على طول الساحل الافريقى ، حتى بلاد غينيا ، ليقابل الرياح المقبلة من الغرب ، وهذا سر من أسرار الملاحة عند البرتغاليين كان الأسبانيون يجهلونه . ولعله أيضا انحرف فى طريقه لينجو من السفن التى أرسلها مانويل ملك البرتغال الى البرازيل للاستيلاء على سفنه

ومهما تكن الأسباب ، فانه كان يسهل على ماجلان أن يبسط بصراحة للربابنة الآخرين العوامل التى حماته على سلوك طريق آخر . ولكن المسألة فى نظره مسألة مبدأ لا مسألة انحراف بضعة أميال عن الطريق المرسوم . ولهذا ، صمم على المحافظة على النظام فى أسطوله منذ الساعة الاولى . واذا كان فى السفن متآمرون — كما أنبأه بذلك حموه بربوسا — فالأفضل أن يزيحوا النقاب عن أنفسهم فى الحال . واذا كانت هناك تعليمات سرية أخفوها عليه، فلتعلن هذه التعليمات بلا ابطاء . وانها لفرصة سانحة يعرف فيها ماجلان حقيقة جوان دى كرتاجينا ، ويعلم مدى طاعته أو عصيانه

والواقع ان مركز كل منهما تجاه الآخر يكتنفه الغموض، فان جوان دى كرتاجينا كان قد عين بادىء الأمر ربانا للسفينة « سان أنطونيو » وعهد اليه بوظيفة أخرى تجعله مرؤوسا لماجلان . فلما نحى ماجلان شريكه فاليرو ، خلفه جوان دى كرتاجينا وعين مساعدا لأمير البحر . واعتمد كل منهما على وثيقة رسمية تجعل احداهما ماجلان قائدا عاما للعمارة ، وتجعل الثانية جوان دى كرتاجينا مراقبا لجميع حالات الاهمال وعدم التبصر التى تصدر عن الربابنة الآخرين

ولكن هل يحق للمساعد محاسبة امير البحر على تصرفه ؟ هذه مسألة لا بد من الفصل فيها . ولهذا ، فان ماجلان قد أجاب اجابة جافة عن السؤال الذى وجهه اليه جوان دى كرتاجينا فيما يتعلق بتغيير الطريق ، فقال : « انه ليس لأحد

أن يحاسبه على تصرفه ، بل على الجميع طاعته بلا قيد ولا شرط ! »

ان الاجابة قاسية .. ولكن ماجلان يفضل العمل السريع الجاف على الالتجاء الى التهديد أو التساهل . وقد أفهم بعمله هذا الربابنة الأسبانيين — وقد يكونون متآمرين عليه — ان لا أمل لهم فى التغلب على ارادته ، وأنه قابض على ناصية الأمور . غير أن ماجلان ، الذى يتحلى بالنشاط والشدة ، يفتقر الى القدرة على تهدئة الخواطر بعد أن يضرب ضربته . فهو لم يتعلم كيف يصوغ الأوامر الجافة فى الفاظ رقيقة ، أو يتحدث بلطف مع رؤسائه أو مرؤوسيه على السواء . وهذا ما يفسر كيف نشأ حواليه التوتر والعداء وازداد من ساعة الى أخرى ، اذ اتضح للربابنة أن تعديل السير الذى دهش له جوان دى كرتاجينا خطأ ظاهر اقدم عليه ماجلان .

فان الرياح الغربية التى توقعها لم تهب . واضطرت السفن الى الجمود فى مكانها خمسة عشر يوما ، فى مياه ساكنة تماما . ثم داهمتها عواصف هوج قال بيجافيتا أنها أوشكت أن تقضى على القافلة ولكنها نجت من الهلاك بأعجوبة

ولم يتمالك جوان دى كرتاجينا نفسه ، فثار ثائره . وما دام ماجلان لا يريد الاصغاء الى أية نصيحة ، ولا يتقبل اى نقد ، فيجب اذن أن يعلم الجميع فى السفن الى اى حد يحتقر جوان كرتاجينا ذلك الملاح الغبى ! نعم ان سفينته « سان أنطونيو » قد اقتربت فى ذلك المساء كالمعتاد من السفينة « ترينيداد » لكى يقدم لماجلان تقريره ويتلقى

أوامره . ولكن جوان دي كرتاجينا لم يظهر بنفسه على ظهر سفينته ، بل أوفد نائبه بدلا منه ، وقد خاطب هذا الضابط القائد العام بهــذه العبــارة : « حياك الله يا سيدى الربان القائد »

وادرك ماجلان مغزى ما خاطبه به الضابط الذى استبدل بعبارة « القائد العام » المتواضع عليها عبارة «الربان القائد»

وفهم المغامر البرتغالى اللبيب أن دى كرتاجينا يريد أن يعلن أمام بحارة السفن انه لا يعد نفسه مرؤوسا لماجلان . وعلى هذا ، فقد أرسل أمير البحر فى الحال الى جوان دى كرتاجينا يقول انه يأمل أن توجه اليه فى المستقبل التحية بالعبارات المتفق عليها

ولم يتقبل جوان دى كرتاجينا هذا الامر بالصمت ، بل رد عليه ببرود قائلا انه يأسف لعدم استطاعته اجابة طلبه . واذا كان قد حياه فى هذه المرة بلسان أكبر ضباطه ، فانه فى المرة القادمة سيحييه بلسان أصغر بحارته . . ومرت ثلاثة أيام رفضت فيها السفينة « سان أنطونيو » تحية سفينة القيادة ، معلنة للسفن الاخرى أن ربانها لا يخضع للقــائد البرتغالى

اذن فان جوان دى كرتاجينا قد القى قفازه فى وجه القائد البرتغالى علنا وعلى مرأى من الجميع ، ولم ينسج له خيوط الدسائس فى الخفاء بالصورة التى وردت فى التقارير الرسمية واصفة دى كرتاجينا بالمكر والدهاء

□

ان أخلاق الرجل تتجلى فى الساعات العصيبة . والصفات

التي تبقى في الاوقات العادية كامنة في الصدور تظهر فجأة وقت الخطر . وقد اعتاد ماجلان أن يواجه الحوادث بطريقة واحدة

فهو يتصف بصمت وبرود عجيبين . وأشد الاهانات فظاعة لا تزيد في بريق عينيه ، خلف حاجبيه الكثيفين ، ولا تؤثر في اعصابه . بل انه يظل محتفظا بهدوئه . وذلك البرود المتناهي ، في مثل هذه الظروف ، يجعله قادرا على رؤية الاشياء بوضوح تام . وهو يجيد وضع الخطة التي يجب السير عليها في الوقت الذي يكون فيه سجين صمته ، فهو لا يقدم ابدا على عمل مدفوعا بالغضب ، أو التسرع . لكنه يصمت طويلا ، ثم ينفجر !

وقد لزم ماجلان الصمت في هذه المرة ايضا . فظن الذين لا يعرفونه من الاسبانيين انه لم يدرك مدى التحدى الذى وجهه اليه جوان دى كرتاجينا. ولكنه في الواقع كان يستعد للرد عليه . فهو يعلم انه لا يسعه ، في عرض البحر ، أن يذهب الى سفينة اكبر من سفينته وأتم تسليحا منها ، ليعزل ربانها من منصبه ، فصبرا اذن وليتظاهر بعدم الاكتراث !

وهكذا لزم ماجلان الصمت أمام الاهانة ورجاله يرونه كل يوم يروح ويجيء على ظهر السفينة ترينيداد ، هادئا ، متظاهرا بالانصراف الى مراقبة الاعمال اليومية الكثيرة

ان السفينة سان أنطونيو لا تزال ممتنعة عن تحيته في المساء . ولكن البحارة يظنون أن هذا لا يؤثر فيه ، بل ان الربابنة أدركوا ، بشيء من الدهشة ، أن ذلك الرجل الغامض

يبدى فجأة ميلا الى المصالحة . وللمرة الاولى ، لمناسبة خروج أحد البحارة على النظام ، دعا أمير البحر الربابنة الاربعة للاجتماع به على ظهر سفينته

واعتقد الربابنة أن ماجلان قد ضاق ذرعا بجو العداء الذى يعيش فيه ، وانه أدرك ــ بعد ظهور خطئه فى اختيار الطريق الصحيح ــ أن الخير فى استشارة الربابنة القدماء المجربين لا فى اهمالهم واطراح مشورتهم

ولبى جوان دى كرتاجينا الدعوة .ولما كانت الفرصة قد سنحت ليخاطب ماجلان وجها لوجه ، فقد أعاد الكرة وسأله مرة أخرى لماذا غير طريق السير . لكن ماجلان لم يرد على السؤال . ولا شك أنه قد رسم لنفسه خطة عزم على تنفيذها ، وهى أن يثير بموقفه الجامد غضب جوان دى كرتاجينا . فان هذا الربان ، بوصفه أكبر موظفى التاج ، يعتقد أن له الحق فى أن يتكلم بحرية . . .

ويغلب على الظن أن حادثا عنيفا وقع بين الرجلين ، وأن جوان دى كرتاجينا قد انزلق الى ما يشبه رفض الطاعة . وكان ماجلان قد توقع مثل هذا التمرد ، بل تمناه

فالآن ، أصبح فى وسعه أن يضرب !

ولم يتردد . . فقد استخدم حقه المطلق فى معاقبة كل مذنب ، فقبض على جوان دى كرتاجينا من صدره صائحا : « أنت أسيرى ! » وأصدر فى الحال أمره الى رئيس الشرطة باعتقال الضابط المتمرد

وشاهد الربابنة الآخرون ما حدث مذهولين ، فلم يفوهوا بكلمة . ومع ذلك ، فقد كانوا ، منذ دقائق فقط ، على وفاق

تام مع جوان دى كرتاجينا . بل أنهم لا يزالون حتى هذه اللحظة مؤيدين فى السر لمواطنهم ضد القائد الاجنبى . ولكن سرعة الضربة ، والشدة الجهنمية التى لجأ اليهـا ماجلان لاعتقال خصمه كأنه مجرم عادى ، شلتا ارادة الربابنة . وعبثا جمل جوان دى كرتاجينا يناشدهم أن ينجدوه ، فلم يجرؤ منهم أحد على أن يخطو خطوة واحدة أو يرفع نظره الى الرجل القصير ، الذى خرج للمرة الاولى عن صمته ، وأظهر هذه الشدة فى المعاملة

وتأهب رجال الشرطة لاخراج جوان دى كرتاجينا ، وفى هذه اللحظة فقط ، التفت أحد الربابنة الى ماجلان ، ورجاه بعبارات رقيقة ، ألا يضع السلاسل الحديدية فى يدى نبيل اسبانى ، وعرض عليه أن يسلمه الى ربان منهم يتعهد بشرفه أن يحتفظ به أسيرا . وقبل ماجلان الاقتراح ، ووقع اختياره على لويس دى مندوسا لمراقبة الربان العاصى ، على شرط أن يتعهد له بيمين يقسمها ، بأن يضعه دائما تحت تصرف القائد العام

وانتهى الحادث عند هذا الحد . وبعد مضى ساعة ، كان الضابط الاسبانى انطونيو دى كوكا يتولى قيادة السفينة سان انطونيو ، خلفا لجوان دى كرتاجينا . وفى المساء ، أرسل تحيته المتفق عليها الى « القائد العام » من ظهر سفينته . واستقر كل شيء واستأنفت القافلة سيرها بدون حادث آخر

وفى ٢٩ نوفمبر ، نادى الرقيب من أعلى مكمنه أن قد بدت فى الافق أرض البرازيل ، ورأى البحارة ساحل برنامبوك . وفى ١٣ ديسمبر ، دخلت السفن الخمس خليج ريودى جانيرو بعد سفر استغرق أحد عشر أسبوعا

ولا شك أن ذلك الخليج الذى لم يكن فى ذلك الوقت أقل جمالا منه الآن بعد انشاء المدينـــة الزاهرة ــ قد بدا لرجال السفن المنهكين كأنه الفردوس وقد أطلق عليه هذا الاسم لأنه اكتشـــف يوم عيـــد القديس « جانيرو » ولأن الذين اكتشفوه كانوا يعتقدون أن وراء الجزر القائمة فى مدخـــله نهرا ، أى « ريو » يصب فى البحر (١) . ويقع خليج ريودى جانيرو فى نطاق الممتلكات المخصصة للبرتغال . ولو خضع ماجلان للتعليمات الصريحة التى تلقاها ، لما كان له الحق فى النزول الى البر هناك . ولكن البرتغاليين لم يكونوا فى ذلك الوقت قد انشأوا بعـــد مراكز تجارية ولا شيدوا حصونا مجهزة بالمدافع . ففى الواقع ، ان تلك البقاع كانت لا تزال مهملة وعلى الحياد . ولهذا ، فان السفن الاسبانية فى وسعها أن تلقى مراسيها دون ان يزعجها احد .

وما اقتربت السفن من الشاطىء ، حتى خرج الســـكان مسرعين من اكواخهم وغاباتهم ، واستقبلوا مطمئنين اولئك الأغراب الوافدين عليهم لابسين الدروع . غير أن بيجافينا يقول فيما بعد انه علم أن أولئك الاقوام من اكلة لحوم البشر ، وأنهم يشوون عدوهم على النار بعد قتله ويلتهمـــون الذ قطع من جسمه ! الا انهم لم يظهروا العداء للرجال البيض

(١) هناك اعتقاد خاطىء بأن اسم « ريودى جانيرو » أطلق على الخليج ثم على المدينة عاصمة البرازيل لان ذلك المكان اكتشف فى شهر « يناير » وهو أول شهور السنة عند المسيحيين . والواقع ان اكتشاف ذلك الساحل كان فى يوم ١٩ سبتمبر وهو عيد القديس « يناير » أو « جانفيير » وقد اتضح فيما بعد أن ليس هناك نهر ولكن اسم « ريو دى جانيرو » ظل يطلق على عاصمة البرازيل وخليجها . وكانت البرازيل مستعمرة برتغالية منذ القرن السادس عشر ثم استقلت فى سنة ١٨٢٢ (المترجم)

القادمين ، ولم يضطر الجنود قط الى استعمال الحراب وقاذفات السهام

وبعد ساعات من نزول الاسبانيين الى اليابسة ، بدأت حركة التبادل بينهم وبين السكان . وشعر بيجافيتا للمرة الاولى بأنه فى جويروقه ، فبدأ يكتب مذكرات ضافية بعد أن اقتصر ما دونه فى الاسابيع الاحد عشر الماضية على حكايات تتعلق بكلاب البحر والطيور الغريبة . ويبدو انه لم يعلم باعتقال جوان دى كرتاجينا . أما الآن ، فان الريش الذى يكتب به لا يكفيه ليدون فى مذكراته اليومية جميع الروائع التى تقع عليها أنظاره

انه لا يقول شيئا فى وصف المناظر الطبيعية ولا يسعنا أن نؤاخذه على هذا ، لأن وصف الطبيعة أفاض فيه جان جاك روسو ، بعد ذلك العهد بثلاثة قرون . فالاثمار التى تنتجها تلك البلاد تثير اعجابه قبل كل شيء : ثمر « الاناناس » الذى يشبه كوز الصنوبر ولكن طعمه لذيذ جدا . وثمر « باتات » (١) الذى يشبه الكستناء . وقصب السكر وغير ذلك من منتجات الارض

وهو لا يتمالك حماسته أمام الاسعار الزهيدة التى يبيع بها السكان منتجاتهم . فانهم يعطون خمس دجاجات أو ستا مقابل صنارة واحدة لصيد السمك، واوزتين مقابل مشط واحد ، وعشر ببغاوات نظير مرآة صغيرة وكمية من السمك تكفى لاطعام عشرة أشخاص عوضا عن قفص واحد . أما الاجراس ــ ونحن نذكر أن نحو عشرين الفا منها قد وضعت

(١) « باتات » كلمة فى لغة سكان أمريكا الاصليين لتمر نقل من أمريكا الى أوربا وأطلق عليه اسم « باتاتا » أو « تفاح الارض » وهو البطاطس .

فى السفن ـ فان جرسا واحدا يكفى للحصول على سلة مملوءة بثمر الباتات اللذيذ . وحدث مرة لبيجافيتا أن أعطاهم ورقة « الملك » من ورق لعب قديم . فأبدلوه بها خمس دجاجات ، واعتقد البائعون أنهم خدعوه !

ومما يباع أيضا بأسعار زهيدة جدا ، الفتيات ! وقد وصفهن بيجافيتا قائلا ان شعورهن هى كل ما يرتدينه من ثياب . فمقابل سكين أو فأس يحصل الرجل على فتاتين أو ثلاث يصبحن ملك يمينه طول عمره !

وبينما كان بيجافينا منصرفا الى تدوين مشاهداته ، والبحارة الى التهام الطعام وصيد السمك واللهو مع الفتيات ، كان ماجلان من ناحيته يتأهب لاستئناف الرحيل . فهو لا يغضبه أن يلهو رجاله . ولكنه يحافظ بدقة على النظام . وقد عمل بالقسم الذى ارتبط به تجاه ملك أسبانيا ، فمنع الرقيق على طول الساحل البرازيلى ، كما حرم أعمال العنف ، كيلا يكون للبرتغاليين سبيل للشكوى

وقد نجح ماجلان بهذا السلوك النبيل نجاحا خاصا ، فانه حين اتضح لسكان البلاد الاصليين أن الاجانب لا يضمرون لهم سوءا ، وفدوا جماعات على ماجلان ورفاقه يختلطون بهم فى اطمئنان تام . وفى أواخر ديسمبر ، أى بعد ثلاثة عشر يوما من النزول بالساحل ، أقلعت السفن الاسبانية مبتعدة عن الخليج الذى ترك فى نفوس رجالها أطيب الذكريات

وفى وسع ماجلان الآن أن يواصل رحلته ناعما براحة ضمير لا ينعم بها غيره من رواد البحر الفاتحين . نعم ، انه لم

يفتح بلادا جديدة باسم شارلكان ، ولكنه لم يرتكب عنفا ولم ينتزع أحدا من بيته ، فقد نزل على الساحل بسلام ، ورحل عنه بسلام !

□

غادر البحارة بشيء من الحسرة خليج ريودى جانيرو الساحر ، وها هم الآن يمرون تجاه شواطيء البرازيل فلا يسمح لهم بالنزول اليها • ولكن ماجلان أصبح فى حالة تمنعه من الراحة مرة أخرى • فهو مدفوع الى الأمام برغبة ملحة ، نحو الممر الذى يعتقد ، بناء على ما جاء فى خريطة مرتان بيهايم وتقارير البرتغاليين المغامرين ، أنه موجود فى مكان معين • واذا صحت روايات الملاحين البرتغاليين ، والمقاييس التى ذكرها مرتان بيهايم فى خريطته ، فان ذلك الممر لابد أن يكون موجودا خلف رأس سانتا ماريا • وهذا ما يحمل ماجلان على الدأب فى السير

وأخيرا، فى اليوم العاشر من شهر يناير، وصلت السفن الى رأس سانتا ماريا ، وأخذت الأعين من بعيد قمة جبل صغير تشرف على سهل لا نهاية له • وأطلق ماجلان على ذلك المكان اسم « مونتيفيدى » وتقوم اليوم هناك مدينة « مونتيفيديو » (١) ولجأت السفن ، لاتقاء العاصفة ، الى الخليج الواسع الممتد مسافات لا ترى نهايتها نحو الغرب

ولم يكن ذلك الخليج غير مصب نهر « ريودى لابلاتا » وماجلان يجهل ذلك • ولكنه يتبين بسرور لم يقو على

(١) عاصمة جمهورية أورغواى بأمريكا الجنوبية

كتمانه ، أن المكان الذى تشـــير اليه التقارير يمتد نحو الغرب ، أى الى الجهة التى توجد فيها جـــزر ملوك المنتجة للتوابل • ويبدو له ان كل ما يراه أمامه يتفق مع الوصف الذى سمعه فى لشبونه • فلا بد اذن أن يكون ذلك الخليج هو الممر الذى قيل ان البرتغاليين حاولوا ، قبل ذلك الوقت بعشرين سنة ، أن يجتازوه نحو الغرب • ويقول بيجافيتا ان الجميع كانوا يعتقدون أنهم قد وفقوا الى اكتشاف الممر المنشود

ولا غرابة أن يكون ماجلان نفسه قد اعتقد ، منذ اليوم الأول ، وأمام تلك الصفحة الهائلة من المياه ، أنه عثر على الممر الذى يبحث عنه • وما كادت العاصــفة التى داهمت العمارة تهدأ ، حتى عمد ماجلان الى توزيع أسطوله ،فأرسل السفن الثلاث الصغيرة الى القناة التى اعتقد انها تؤدى الى الغرب ، والتى لم تكن غير نهر بلاتا وقاد بنفسه السفينتين الأخريين الكبيرتين ، واتجه بهمـــا جنوبا خلال المصــــب الواسع ، ليتحقق من وجود الممر فى تلك الناحية

لكن بحثه لم يسفر عن شىء • وبعد خمسة عشر يوما ، رأى قلوع السفن الثلاث وهى عائدة الى المكان المحدد للقاء • وكانت خيبة أمل مرة ! فان الســفن لا ترفع على صاريتها العلم المبشر بالخير • والربابنة يحملون معهم خبــرا يبعث اليأس ، فان تلك المياه التى ظنوها بادىء الأمر القنـــاة المنشودة ، ليست فى الواقع غير نهر تندفع مياهه بقــوة غير مألوفة • وكان المغامر جوان دى سوليس قد بحث فى ذلك المكان عن الطريق الى ملقة ، ولكنه لقى حتفه • فأطلق اسمه مؤقتا على ذلك النهر فسمى « ريو دى سوليس » ثم

أبدل هـذا الاسم فيما بعد ، فسمى النهر « ريودى لابلاتا » (١)

اذن ، فعلى ماجلان أن يضغط أعصابه • وينبغى ألا يفطن أحد من رجاله الى أى حد زعزعت خيبة الأمل ثقته بنفسه• ومنذ هذه اللحظة ، تأكد ماجلان من شيء واحد ، وهو أن خريطة مرتان بيهايم خاطئة ، وتقارير البرتغاليين الخاصة باكتشاف ممر مزعوم عند الدرجة ٤٠ من خط العرض غير صحيحة • وجميع معلوماته ، وجميع تقديرات فاليرو ، وجميع توكيداته ، وجميع ما وعد به الامبراطور ومستشاريه ، كل ذلك قائم على خطأ ! واذا كان ذلك الممر موجودا ـ وماجلان يشك الآن فى وجوده بعد أن كان يعتقد ذلك ـ فلا بد أن يكون واقعا فى مكان آخر ، بعيدا نحو الجنوب

لكن مواصلة السير نحو الجنوب ليس معناها الذهاب الى مناطق حارة ، بل بالعكس • فقد تجاوزت السفن من زمن بعيد خط الاستواء ، فمعنى السير الى الجنوب اذن، الاقتراب من الاصقاع القطبية • وشهرا فبراير ومارس لا يعنيان هنا نهاية الشتاء بل بدايته • فاذا لم يتم بسرعة اكتشاف الممر فى بحر الجنوب ، فالفصل الملائم يكون قد انقضى ، وستجد السفن نفسها أمام أمرين لا ثالث لهما : العودة

---

(١) ريودى لابلاتا اسم مصب نهرين : نهر « اوروغواى » ونهر « بارانا » وهو أوسع مصبات الانهار فى العالم ، اذ يبلغ عرضه عند منفذه ٣٢٠ كيلومترا • وتقع على ساحله مدينة مونتيفيديو عاصمة جمهورية أوروغواى ، ومدينة بونس ايرس عاصمة جمهورية الارجنتين

الى مناطق أكثر أعتدالا ، أو قضاء فصل الشتاء فى هذا المكان !

☐

منذ اليوم الـــذى عادت فيه الســـفن التى أرســـلت للاستكشاف ، حاملة النبأ المخيب للآمال ، لا بد أن تكون الأفكار المزعجة قد انتابت نفس ماجلان ، ولابد أن تكون الدنيا قد اسودت فى عينيه : فهو يرى أمامه الســـاحل قائما ، عاريا ، قاحلا يوما بعد يوم . ويرى السماء تزداد عبوسا . فقد انطفأ النور الابيض الساطع من الجنـــوب . والغيوم الكالحة تتلبد بها السماء الزرقاء . واختفت الغابات الكثيفة التى كانت تداعب السفن المقتـــربة من الساحل بنسماتها المنعشة . نعم لقد آختفى كل ذلك دون أمل فى رجعته : مناظر البرازيل اللطيفة ، وأشجاره المثقلة بالاثمار ، ونخله ذو الاغصان المتمايلة ، وحيواناته بأشكالها المنوعة ، وسكانه الكرماء ..

ان العين لا تقع الآن الا على الطيور البحرية والحيوانات المائية ، ولا ترى على الشاطىء أثرا لكائن حى ، على مدى البصر ، كأن كل حياة انطفأت في تلك الفيافى المجهولة

حدث مرة واحدة أن وقع نظر البحارة على رجال فارعين متوحشين ، يغطون أجسامهم بجلود الحيوانات ، كما يفعل الاسكيمو . ولكن لا شيء يغريهم ، لا الاجراس ولا القلانس الملونة التى يلوح لهم بها البحارة . فانهم كالحو الوجـــوه عابسون ، يبتعدون هاربين كلما حاول أحد الاقتراب منهم .

وعبثا حاول البحارة العثور على أثر للمساكن

الرحلة تزداد عناء يوما بعد يوم ، وسرعة السفن تخف يوما عن يوم • وماجلان يحتفظ بخط السير على مقربة من الساحل لا يحيد عنه • وكل خليج مهما يكن صغيرا ، وكل مرفأ مهما يكن تافها ، يدرس درسا وافيا وتقاس أعماق المياه فيه

نعم ، إنه لا يعتمد الآن على تلك الخريطة الملعونة التى دفعته الى القيام بهذه الرحلة ثم خانته ! ولكن ، من يدرى؟ فقد تحدث المعجزة ، وقد يظهر فجأة ، فى مكان لا يفكر فيه أحد ، ذلك الممر الذى سيتيح له دخول بحر الجنوب قبل أن يبدأ فصل الشتاء • وأصبح ماجلان يتعلق بأهداب أمل أخير ، وهو أن تكون الخرائط وتقارير البرتغاليين قد أخطأت فقط فى تحديد خط العرض ودرجته ، وأن تكون الطريق المنشودة واقعة فى مكان أبعد من ذلك الى الجنوب

ولما اقتربت السفن من جديد ، فى ٢٤ فبراير ، من خليج كبير آخر ، وهو خليج سان ماتياس، انتعشت الآمال مرة أخرى ، كما تنتعش النار بنفحة النسيم • فأسرع ماجلان بارسال السفن الصغيرة ، لتبحث عما اذا كان الممر نحو جزر ملوك يوجد فى ذلك المكان •وجاء الرد مرة أخرى: لا شىء ! • ومرة أخرى ، وجد ماجلان نفسه فى خليج مغلق وعادت السفن بخيبة أمل للمرة الثانية • ولم يسفر البحث عن نتيجة أفضل من هذه فى خليجين آخرين : خليج «باهيا دى لوس باتوس » وخليج « باهيا دى لوس شراباجوس » فالرجال الذين نزلوا الى البر فى الخليجين لم يحملوا معهم

غير جثث الحيوانات البـــحرية التى اصطادوها ، على انهم عادوا يشكون تصلب أجسامهم من شدة البرد

واستؤنف السفر ، على طول الساحل ، الى بعيد ، تحت أشعة شمس كئيبة · وازدادت الوحشة فظاعة · وجعلت الايام تقصر والليالى تطول · والسفن الآن لا تسير فى جو رقيق ، مدفوعة الى الأمام بنســيم خفيف ، بل ان زوابع عنيفـــة تعبث بالقلوع ، والثلج والبرد يتساقطان عليها بشدة ، وقد استغرق اجتياز المسافة القصيرة التى تفصل بين ريودى لابلاتا ومرفأ سان جوليان شــهرين كاملين · فالسفن تكافح الزوابع كل يوم ، والرياح تهز الصــوارى والقلوع بعنف ، والممر المنشود لا يظهر له أثر

وهكذا دفع البحارة غاليا ثمن الاسابيع التى قضــوها فى راحة ونعيم · وبينما كانت السفن تواصـــل فحص جميع الخلجان ، كان الشتاء قد أقبـــل ! وها هو ذا اليوم ماثل أمام رجال الحملة ، يسد فى وجوههم الطريق . وقد مرت ستة أشهر منذ أقلعت السفن من أشبيلية ، وماجلان لم يتقدم خطوة واحدة عما كان عليه فى اليوم الاول !

▭

وبدا البحارة يبدون قلقهم شيئا فشيئا . فانهم يشعرون بأن هناك شيئا غير عادى . أما قيل لهم فى أشبيلية وقت الرحيل ، انهم ذاهبون الى جزر التوابل ، فى المناطق الجنوبية النيرة ، وفى بلاد تحفل بالنعيم ؟ أما وصف لهم العبد هنريك وطنه فقال انه أرض الخيرات ، يقطف فيها الانسان ما يشاء

من التوابل الثمينة ؟ اما قطعت لهم الوعود بأنهم سيصبحون أغنياء ويعودون بسرعة الى وطنهم ؟ وبدلا من ذلك كله ، ساقهم هذا الرجل العابس الصامت الى أصقاع يزداد فيها البرد وتشتد الوحشة يوما عن يوم

ان أشعة الشمس الضعيفة تخترق السحب ، ولكن السماء تلبث غالبا ملبدة بالغيوم ، والجو ينبىء بسقوط الثلج . والرياح تصفعهم بعنف على وجوههم وتتسرب داخل ثيابهم فتمزقها . وأيديهم تتجمد من البرد كلما لمسوا الحبال المكسوة بالجليد ، وأنفاسهم تتحول الى بخار . . .

ثم ، يا لها من عزلة ويا لها من كآبة ! فان أكلة لحوم البشر انفسهم قد فروا أمام البرد . وعندما ينزل الرجال الى البر ، لا يجدون حيوانا ولا نباتا . . . لا شىء غير الصدف وحيوانات البحر ، التى تؤثر الحياة فى المياه الباردة ، على الحياة فى ارض تكتسحها العواصف بلا انقطاع . . . فالى أين ساقهم هذا البرتغالى ؟ والى أين يسوقهم ؟ أهو ذاهب بهم الى ارض ايسلندا أم الى القطب الجنوبى ؟

عبثا حاول ماجلان تهدئة الخواطر ، فانه لا يجمل بالبحارة ان يتولاهم الذعر بسبب البرد فيفقدوا شجاعتهم ! فسواحل نرويج وايسلندا تمتد فى خط عرض أبعد من هذا المكان بكثير ، ومع ذلك فالملاحة فى تلك الأصقاع ليست أصعب من الملاحة على سواحل اسبانيا ذاتها . فعلى الرجال اذن أن يصبروا أياما أخرى . واذا لزم الأمر ، ففى وسع القافلة قضاء الشتاء فى مكان دافىء ، وانتظار طقس ملائم لاستئناف السفر

لكن الكلمات المعسولة لم تعد تهدىء روع البحارة .. ان السفر فى هذه الأصقاع لا يمكن أن يكون ملكهم قد فكر فيه. واذا كان قائدهم يحدثهم عن النرويج وايسلندا ، فان وجه الشبه بعيد بينهما وبين هذه السواحل . فالناس هناك قد اعتادوا البرد منذ نعومة أظفارهم ، وهم واثقون من العودة الى بيوتهم بعد ثمانية أيام أو خمسة عشر يوما . أما هؤلاء البحارة فقد جىء بهم الى مناطق قفراء ، لم يصل اليها مسيحى من قبل ، بل ان الوثنيين انفسهم وأكلة لحوم البشر لا يطيقون سكناها ، وحتى الدببة والذئاب قد نأت عنها ، فلأى هدف يرتادون هذه المناطق ؟ ولماذا يسيرون فى هذه الطريق ما دامت هناك طريق الهند الشرقيــة التى تؤدى براحة واطمئنان الى جزر التوابل ، بدون أن يضطر البحارة الى اجتياز سهول الجليد وهذه السواحل القاتلة ؟

بهذه الاعتراضات رد البحارة بصراحة على توسلات قائدهم . اما فيما بينهم ، وفى أثناء اجتماعهم داخل السفن ، فانهم بلا شك يعبرون عن أفكارهم بلهجة أشد عنفا من هذه ...

وعاودتهم الشكوك التى راجت عنها الاشاعات فى أشبيلية من قبل : ألا يلعب هذا البرتغالى اللعين لعبة ذات وجهين ؟ الا يرمى الى استرضاء مليكه بقيادته خمس سفن جميلة من سفن أسبانيا مع رجالها الى الهلاك ؟

وقد كان الربابنة الأسبانيون ، ينظرون بعين الارتياح الى تفاقم السخط بين البحارة . ولكنهم لا يقولون شيئا ، ويتجنبون التحدث مع أمير البحر . بل انهم يبالغون فى

صمتهم . وقد يكون ذلك الصمت أكثر خطـرا من ثرثرة البحارة . وقد ادركوا بما لهم من خبرة فى شئون الملاحة ، أن ماجلان قد أصيب بخيبة أمل شديدة ، وأنه لم يعد واثقا تماما من « سره » الذى يكتمه . فلو كان يعرف مكان الممر الذى يبحث عنه ، لما جعلهم يتوغلون فى مصب نهـر بلاتا اسبوعين . ثم ، لماذا يضيع وقتا ثمينا ويقضى أياما عديدة ، فى الكشف عن كل خليج صغير فى الطريق ؟

ان ماجلان ، بادعائه معرفة الطريق الى الممر المنشود ، قد خدع الملك ، أو خدع نفسه ، اذ أن هناك شيئا قد أصبح الآن واضحا : ان ماجلان يبحث عن طريق لا يعرفها . ولهذا ، فان الربابنة يرقبونه بفرح ماكر لا يحاولون اخفاءه ، كلما وقف أمام فرجة على الساحل يكشفها بمنظاره ، ويتمنون لو واصل السير بالسفن فى الجو البارد وعلى صفحة المحيط اللانهائى ! فانهم ليسوا فى حاجة بعد الآن الى مقاومته أو شكواه . فعما قليل تأزف الساعة التى يضطر فيها اضطرارا الى الاعتراف بخطئـه فيقول : « لم أعد أعرف طريقى ! » وحينئذ ، يمكن ارغام ذلك الرجل المتكبر على ان يحنى رأسه !

□

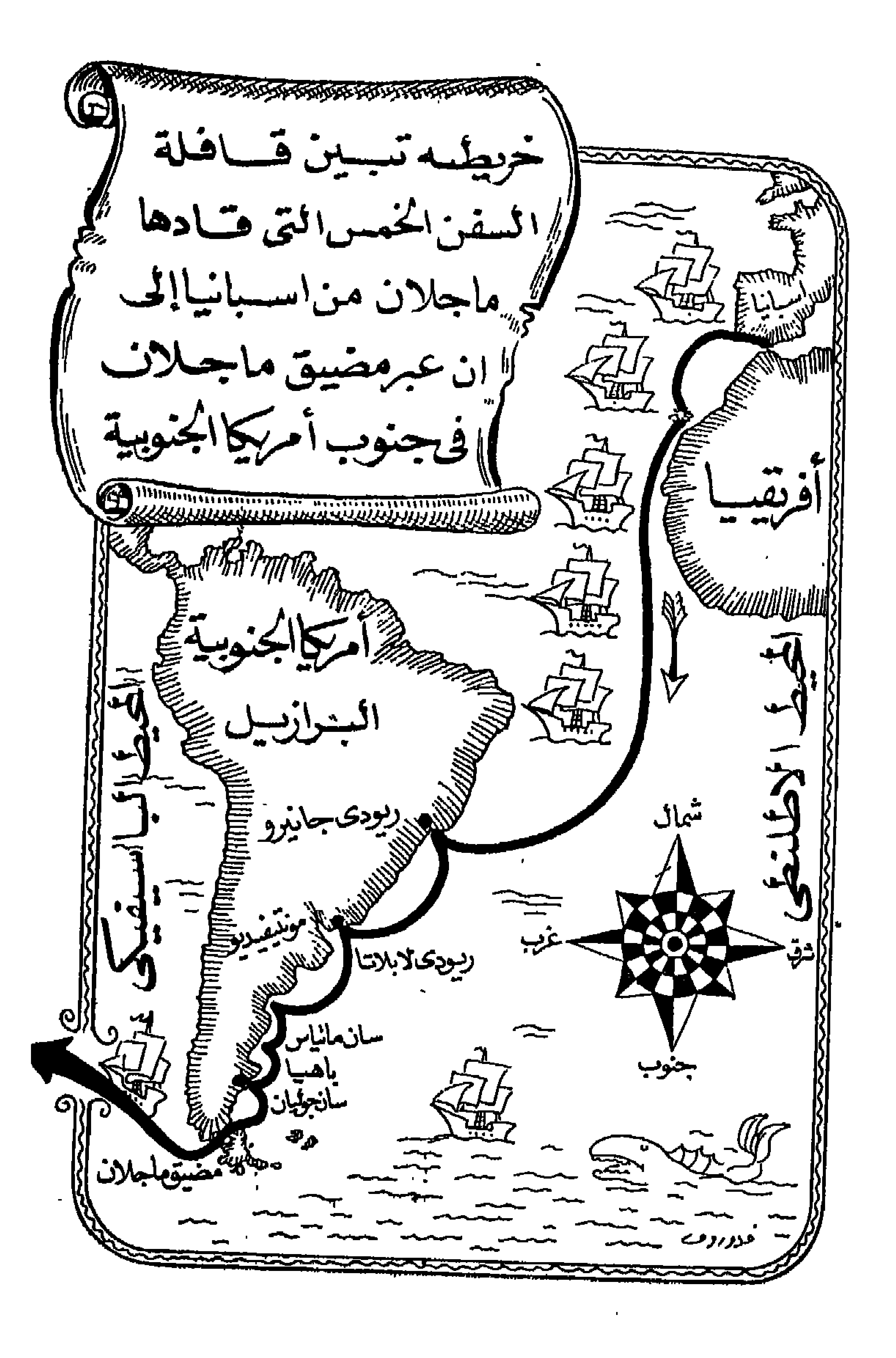
ولا يمكن أن يتصور العقل حالة نفسـية افظع من حالة ماجلان خلال تلك الأسابيع . وحتى لو كان الممر موجودا فى مكان ما الى الجنوب ، كما يعتقد هو الآن ، فان فرصة بلوغه هذا العام قد فاتت واصبح الشـتاء حائلا دونهـا . ولو اكتشفه بهذه السفن وبحارتها المنهكين ، لما تيسر له اجتيازه

قبل الربيع . وقد انقضت تسعة أشهر على بدء رحلته ، ولكنه لم يصل بعد الى جزر التوابل كما وعد ، وما زالت سفائنــه ضالة فى المحيط الشـاسـع ، تهاجمهــا الزوابع وتكتنفها الأخطار

فالحكمة تقضى اذن بافشاء الحق ، ودعوة ربابنة السفن الى الاجتماع به ، والتصريح بانه خدع بالخرائط وروايات الملاحين البرتغاليين ، وأن الأجدى ان تعود السفن أدراجها فى محاذاة ساحل البرازيل لقضاء فصل الشتاء فى مكان دافىء. فان هذا يتيح للبحارة فرصة لاستعادة قواهم ، وترميم السفن ، لاستئناف السفر جنوبا عندما يحل الربيع

هذا ما كان يقضى به المنطق والشعور الانسانى . ولـكن ماجلان قد تورط الى حد لم يعد يسمح له بالتراجع . فقد طالما صرح مؤكدا أنه يعرف طريقا أقصر من الطريق المألوفة للوصول الى جزر ملوك . وعاقب بصرامة أولئك الذين عبروا عن شكهم فى صحة ما يدعى . واهان الضباط الاسبانيين ، وعزل أكبر موظف من موظفى الملك فى عمارته وعامله معاملة المجرم الأثيم . ولا شيء يبرر ذلك كله الا احراز نصر سريع . فان الربابنة والبحارة لن يتركوا زمام القيادة بيده دقيقــة واحدة ، لو اعترف لهم بأنه لم يعد واثقا من قضيته بقدر ما كان واثقا منها يوم الرحيل . وسيرفض أصغر صبيان السفن تحيته : فلا يمكن لماجلان أن يتراجع الى الوراء. ومنذ اللحظة التى سيصدر فيها أمره بالعودة الى البرازيل ، لن يبقى رئيس ضباطه ، بل يصبح أسيرهم

كل هذه الاعتبارات جعلت ماجلان يقدم على قرار يائس.


خريطة تبين قافلة
السفن الخمس التي قادها
ماجلان من اسبانيا إلى
ان عبر مضيق ماجلان
في جنوب أمريكا الجنوبية
اسبانيا
أفريقيا
أمريكا الجنوبية
البرازيل
ريودي جانيرو
مونتيفيديو
ريودي لابلاتا
سان ماتياس
باهيا
سان جوليان
مضيق ماجلان
شمال
جنوب
شرق
غرب

وكما ان كورتيز ، فى السنة ذاتها ، قد أحرق سفنه ليحرم جنوده من كل وسـيلة للتقهقر (۱) ، فان ماجلان قرر من ناحيته ابقاء سفنـه ورجاله فى مكان قصى منعزل ، بحيث لا يسـتطيعون ، لو أرادوا ، أن يرغموه على الرجوع على أعقابه . فان وجد الممر فى الربيع سارت الامور على ما يرام . وان لم يجده ، وقعت الكارثة !.. فليس اذن أمام ماجلان حل وسط . والعنـاد وحده يحفظ له القيادة ، والجراة تنقذه !

▭

داهمت العاصفة سفن القافلة بشدة بالغة . فهى تسير الآن ببطء وعناء . وقد استغرق اجتياز مسافة لا تزيد على اثنتى عشرة درجة الى الجنوب نحو شهرين . وأخيرا ، فى ۳۱ مارس ، بلغت السفن خليجا جديدا . فهل هو الممر المرتقب ؟ كلا !.. انه خليج مغلق . ومع ذلك ، فان ماجلان يصدر أمره بدخول السفن فيه . ولما تبين ان الخليج تتوافر فيه المياه العذبة وتكثر الأسماك ، طلب الى السفن أن تلقى مراسيها . وبلغت دهشة الربابنـة والبحارة حد الذعر ، عندما علموا أن أمير البحر قد اعتزم ـ دون مشورتهم ـ قضاء الشـتاء فى خليج سان جوليـان الصغير المجهـول ، عند خط العرض ٤٩ ، فى بقعة قفراء جرداء ، لم تطأها من قبل قدم أوربى على الاطلاق !

---

(۱) لقد كرر الاسبانيون فى تاريخهم اكثر من مرة ما صنعه طارق بن زياد ، الذى أحرق مراكبه بعد نزول رجاله الى بر الاندلس ، كما هو معروف

العصيان

٢ ابريل ١٥٢٠ — ٧ إبريل ١٥٢٠

لابد أن تكون الخصومات قد تفاقمت خـــلال الاقامة في خليج سان جوليان ، أكثر من تفاقمها في عـرض البحر • وبالرغم من ذلك أقدم ماجلان عـلى تدبير من شأنه أن يزيد الامتعاض تفاقما •فهو يعرف أن شهورا عديدة سوف تنقضي قبل أن تصل السفن الى بقاع معتدلة خصبة ـ على افتراض انها ستصل اليها ـ ولذلك فقد أصدر أمره فورا بتخفيض الجرايات • وانها لجرأة يصعب تصديقها تلك التي جعلتـه يعلن هنا ، في هذا الركن البعيد من العالم ، ومنذ اليـــوم الاول ، لبحارة يضمرون له العداء ، أن جرايات الخبزالمجفف والنبيذ سوف تخفض منذ اليوم

وفي الواقع،كان هذا القرار الجرىء هو الذى أنقذالقافلة • ولو لم يتصرف ماجلان على هذا النحو، لما تمكنت السفن من اتمام تلك الرحلة العجيبة،غير أن البحارة ، الذين لايأبهون بمشروع لايعرفون عنه شيئا ، لم يظهروا أى استعداد لقبول ذلكالتدبير القاسى •فان الغريزة تنبئهم ـ وهذا أمر طبيعى ـ بأنه حتى لو قدر لقائدهم أن يكتسب منهذه الرحلة مجدا خالدا ، فان ثلاثة أرباعهم على الأقل سيدفعون حياتهم ثمنا لذلك النصر • ولهذا فانهم يتهامسون قائلين : اذا لم تكن المواد الغذائية كافية ، فلنعد اذن من حيث جئنا !

ثم انهم قد توغلوا جنوبا الى مسافة لم تبلغها من قبـــل سفينة أوروبية • ولن يجرؤ أحد فى المستقبل عـلى لومهم مدعيا بأنهم لم يؤدوا واجبهم كاملا • فقد مات بعضهم من البرد ، ولم يكن الغرض من استئجارهم الوصول الى المحيط المتجمد ، بل الى جزر ملوك ، جزر التوابل

وقد ادعى بعض المؤرخين الاسبانيين أن ماجلان رد على هذه الاعتراضات بخطاب لا نراه متفقا مع طبيعته الجافة ، وهو خطاب يشبه كتابات بلوترخوس وتوسيديدس فلا يسعنا أن نصدق ما جاء فيه . فان أولئك المؤرخين يجعلونه يخاطب البحارة قائلا لهم انه ليدهشه أن يبدى رجال اسبانيون مثل هذا الضعف ناسين أنهم يقومون بهذه الرحلة من أجل ملكهم ووطنهم . وانه كان يظن ، عندما عهد اليه بالقيادة ، انه سيجد فيهم روح الشجاعة التى طالما تحلت بها الأمة الاسبانية . أما هو ، فانه يؤثر الموت على العودة ملطخا بالعار . وبقدر متاعبهم تكون المكافأة التى ينالونها من الملك ...

ولكن الخطب المنمقة لا تهدىء روع رجل جائع . ولم تنقذ ماجلان بلاغته فى تلك الساعة العصيبة . وانما أنقذه قراره الجرىء ، ورفضه التسامح . وقد أثار مقاومة البحارة بادىء الأمر متعمدا ، ليتسنى له القضاء عليها بيد من حديد . وهو يرى أنه خير له أن يبدأ العراك فورا ، من أن يؤجله الى ما شاء الله ، وخير له أن يتقدم لمواجهة العدو من أن ينتظر هجومه

□

ان ماجلان لا يشك فى أن الخلاف سينشب قريبا . ففى الاسابيع الاخيرة تفاقم التوتر بين الربابنة وبينه بصورة شديدة الخطر ، ولابد أن يؤدى ذلك الصمت الذى يلزمه الطرفان ، وذلك الجفاء العدائى ، وتلك الرقابة المتبادلة ، الى انفجار يقع ذات يوم !

ويجب الاعتراف بأن مسئولية تلك الحالة تقع على ماجلان أكثر مما تقع على الربابنة الاسبانيين • وليس أهون على المؤرخين من اظهار هؤلاء الربابنة في مظهر جماعة من الخونة أعداء العبقرية الدائمين • ففى تلك الساعة العصيبة كان يحق لهم ، بل كان يجب عليهم أن يعلموا نوايا أمير البحر، لأن المسألة لم تكن متعلقة بحياتهم فقط ، بل بحياة الرجال الذين تحت امرتهم أيضا ، واذا كان الملك شارلكان قد عين جوان دى كرتاجينا ، ولويس دى مندوسا ، وانطونيو دى كوكا ، مراقبين فى السفن ، فقد فرض عليهم ، لقاء اللقب والمرتب ، طائفة من المسئوليات تقضى عليهم بالسهر على أملاك الامبراطور وهى هنا سفن القافلة الخمس ، فاذا تعرضت للخطر ، دافعوا عنها

وقد أصبحت السفن فى خطر ، بل خطر عظيم • فان تسعة أشهر قد انقضت ، وماجلان لم يعثر بعد على الممر الذى ادعى أنه يعرفه ، ولم يصل الى جزر ملوك • ولا ضير على موظفى التاج اذا هم أقدموا ، أمام حيرته البينة ، على مطالبته بأن يرفع على الأقل طرف النقاب الذى يخفى « سره العظيم » وان يثبت أنه يتصرف مع الملك تصرفا شريفا ، بأن يكشف أوراقه أمام ضباط التاج • وليس هناك دليل يسمح لنا أن نقول ان الربابنة قد فكروا فى العصيان منذ بداية الرحلة أو حاولوا نزع القيادة من أمير البحر ، ولكنهم طلبوا اليه فقط أن يضع حدا للغموض وأن يجالسهم على منضدة واحدة ، ليتناقشوا فى سير الحملة ومصيرها

ولكن ماجلان المسكين مضطر الى اخفاء خطته ما دام غير

واثق من أنه قابض على جميع عوامل الفوز • فليس يسعه أن يضع أمام الربابنة خريطة مرتان بيهايم ، لان فيها اشارة خاطئة بأن الممر موجود عند خط العرض ٤٠ • وليس فى وسعه أيضا ـ بعد أن عزل جوان دى كرتاجينا (١) ، أن يقول لهم : « لقد خدعت بتقارير خاطئة ، وخدعتكم ! » وليس فى وسعه أن يدعهم يسألونه أين يوجد الممر لانه هو نفسه لا يعرف ذلك • فينبغى له اذن أن يظل كالأصم الأبكم ، وأن يعض على شفتيه ، ويعد قبضة يده للضرب اذا دنا المتطفلون منه أكثر مما يحق لهم !

وهكذا بات مراقبو الملك في السفن الخمس يلحون على ماجلان أن يشرح لهم ماذا ينوى أن يصنع بالسفن الخمس وبحارتها الذين وضعهم الملك أمانة بين يديه • وماجلان ، الذى لا يستطيع أن يشرح ما دام لم يبلغ بعد الممر المنشود، مصمم ألا يجعلهم يرغمونه على الافصاح كيلا يفقد سمعته وسلطته

وهكذا ، فان الحق يبدو واضحا من ناحية الضباط ، والارتباك من ناحية ماجلان • واذا كانوا يلحون على أمير البحر أن يفضى اليهم بما يهدىء نفوسهم ، فليس ذلك تطفلا منهم وانما هو فرض يؤدونه • وينبغى أن يقال أيضا ـ وفى هذا ما يشرفهم ـ انهم لم يسلكوا مع ماجلان سلوكا

---

(١) جوان دى كرتاجينا من أسرة اسبانية نبيلة تنتمى الى مدينة كرتاجينا ، وهى « قرطاجنة » اى « قرطاجنة الصغيرة » الواقعة على ساحل البحر المتوسط بأسبانيا ، والتى أنشأها القرطاجيون سنة ٢٢٣ قبل الميلاد واطلقوا عليها اسم مدينتهم مصغرا • وفى جمهورية كولومبيا بأمريكا الجنوبية مدينة تدعى أيضا « قرطاجنة » أنشأها الاسبانيون

ماكرا ، بل أفهموه ـ مرة أخيرة ـ أن صبرهم نفد

وظن الرجل أنه يستطيع تهدئة خواطر الربابنة بمظهر من مظاهر المجاملة ، بعد أن آثار امتعاضهم بالاوامر المتتابعة التى أصدرها بدون استشارتهم ، فدعاهم رسميا الى سماع صلاة القداس معه يوم عيد الفصح ، وتناول الطعام على مائدته فى سفينة القيادة . ولكن الربابنة الاسبانيين لا يريدون بيع رضاهم بهذه السهولة . وما دام السيد النبيل فرناو دى ماجلانس ـ الذى لم يحصل على لقب « فارس سنتياغو » الاسباني (١) الا بالتبجح الفارغ ـ لم يرهم أهلا للتحدث معه فى نواياه ، خلال تسعة أشهر كاملة ، فانهم يشكرونه الآن بكل تأدب على تفضله بدعوتهم لتناول الغداء ! بل انهم لا يشكرونه وانما يهملون الرد على دعوته . وقد بقيت مقاعدهم على المائدة خالية ، وأطباقهم فارغة ، ورأى ماجلان نفسه مضطرا الى الاكتفاء بمدعو واحد ، هو قريبه ألفارو دى مسكيتا ، الذى رفعه الى رتبة ربان

ويغلب على الظن أن غداء الفصح هذا لم يكن على هواه . فان الربابنة الاسبانيين قد أعلنوا ماجلان ، بمظهر الاحتقار المشترك هذا ، أنهم يخاصمونه . وقد تحدوه جهارا، وقالوا له : « لقد توتر الحبل أكثر مما يجب . فكن على حذر ، أو اسلك مسلكا آخر ! »

---

(١) من ألقاب الشرف عند الاسبانيين فى العهد الملكى ، نسبة الى مدينة سنتياغو وهى مدينة جوان دى كومبوستيل ، حيث توجد كنيسة يحج اليها المسيحيون فى أوربا

وقد فهم ماجلان الانذار • ولكن لا شيء يمكن أن يعكر هدوء ذلك الرجل الفولاذى الاعصاب • فقد تناول الغداء بسكون تام مع مسكيتا ، متظاهرا بأنه لا يبالى • ثم صعد هادئا الى ظهر سفينته حيث أصدر أوامره كالمعتاد ، ولما أقبل الليل استلقى بكل اطمئنان على فراشه

وأطفئت جميع الانوار ، وها هى السفن الخمس جاثمة مرتاحة كأنها حيوانات ضخمة نائمة فى ظلال الخليج • والظلام حالك فى هذه الليلة الباردة من ليالى الشتاء، بحيث يصعب على العين أن ترى من كل سفينة خيال السفينة الاخرى • فلم ير أحد شيئا ولم يسمع صوتا ، عندما ابتعد زورق ، فى منتصف الليل ، من احدى السفن الخمس واتجه نحو السفينة « سان انطونيو » • ولكن هل يتصور أحد أن هذا الزورق يحمل الربابنة الثلاثة ، جوان دى كرتاجينا ، وجسبار كويسادا ، وانطونيو دى كوكا ؟

ان الخطةالتى رسموها خطة حكيمة جريئة• وهم يدركون أنهم اذا راموا فرض ارادتهم على خصم عنيد كماجلان ، فانه يجب عليهم أن يكونوا أشد منه بأسا وعنادا • ثم ، أليس الامبراطور نفسه هو الذى أراد هذا ؟ فان سفينة واحدة ، عند الرحيل ، وضعت تحت قيادة ربان برتغالى ، وهى سفينة ماجلان • أما السفن الأربع الأخرى فقد وضعت تحت قيادة ربابنة اسبانيين

وهذا النظام الذى أراده الامبراطور قد عدله ماجلان من تلقاء نفسه ، بعزل جوان دى كرتاجينا أولا ، ثم بعزل انطونيو دى كوكا من قيادة السفينة سان انطونيو ، وتعيين

ابن خاله مسكيتا قائدا لها . ومنذ أقدم ماجلان على هذا العمل الجرىء،أصبح من الناحية الحربية مسيطرا على العمارة كلها ، اذ أن سراو ، قائد السفينة « سنتياغو » وهى أصغر السفن الخمس ، منضم اليه . فللقضاء على هذا التفوق فى القوى ، الذى يتمتع به ماجلان الآن ، ولكى تنفذ ارادة الامبراطور ، لا توجد غير وسيلة واحدة : وهى الاستيلاء على السفينة « سان أنطونيو » وابعاد مسكيتا الذى أسندت له قيادتها بدون حق . ولو تم ذلك ، لأصبح الاسبانيون من جديد ثلاثة ضد ماجلان وحده ، ولصار فى مقدورهم أن يمنعوه من مغادرة الخليج ، الا اذا أفضى اليهم بالايضاحات التى يطلبونها

لقد وضعت الخطة بدقة ، ونفذت أيضا بدقة . فقد اقترب الزورق يحمل ثلاثين رجلا مسلحا ، من السفينة سان انطونيو حيث الجميع يغطون فى نومهم ، وحيث لايسهر أحد للحراسة . وصعدجميع من فى الزورق الى ظهر السفينة مستعينين بسلالم من الحبال ، وفى مقدمتهم جوان دى كرتاجينا وانطونيو دى كوكا . ولما كان قد سبق للاثنين أن توليا القيادة فى هذه السفينة ، فانهما يعرفان الطريق المؤدية الى حجرة الربان . وقبل أن يتسنى لالفارو دى مسكيتا الخروج من سريره ، كان الرجال المسلحون قد أحاطوا به ، وكبلوه بالسلاسل ، وحملوه الى حجرة الكاتب.

وفى هذه اللحظة ، ظهر بعض البحارة الذين استيقظوا على الضجة . وشعر أحدهم وهو الرئيس جوان دى ايلورياجا، ان فى الأمر خيانة ، فخاطب كويسادا بلهجة عنيفة وسأله

ماذا يصنع فى الليل على ظهر هذه السفينة • وكان جواب كويسادا ست طعنات من خنجره ، فسقط ايلورياجا يتخبط بدمه • وقبض على جميع البرتغاليين وكبلوا بالحديد • وهكذا تم التخلص من أشد أنصار ماجلان خطرا • وأراد كويسادا أن يستميل بقية البحارة ففتح مخزن المؤن ووزع على كل بحار وجبة وافرة من الخبز المجفف والنبيذ • واذا ضربنا صفحا عن حادثة القتل بالخنجر ، التى حولت هذا السطو الى عصيان دموى ، فان كل شىء قد تم حسب تقدير العصاة • ففى وسع جوان دى كرتاجينا ، وكويسادا ، وكوكا ، أن يعودوا الآن الى سفنهم ليعدوها للقتال • وقد عهدوا فى أثناء ذلك بقيادة السفينة « سان انطونيو » الى رجل يظهر اسمه هنا للمرة الاولى : جوان سباستيان دلكانو • وهذا الرجل ، الذى وقع الاختيار عليه ليمنع ماجلان من تحقيق مشروعه ، هو نفسه الرجل الذى سيختاره القدر لانجاز العمل الذى بدأه قائده الأعلى !

ان السفن تنام هادئة فى ظلال الخليج ، ولا ينبعث منها نور أو صوت يفضح ما حدث !

□

ان النهار يطلع متأخرا كئيبا فى تلك المناطق الموحشة • والسفن الخمس جامدة فى أماكنها ، فى سجنها البارد داخل الخليج • وليست هناك أية اشارة ظاهرة ، تجعل ماجلان يدرك أن ابن خاله وصديقه، وجميع البرتغاليين فى السفينة « سان انطونيو » مكبلون بالحديد ، وان ربانا عاصيا قد

تسلم قيادتها • ففي أعلى الصارية تخفق الراية نفسها • ويبدو أن لا شيء قد تغير •••

أرسل ماجلان ، كما يفعل صباح كل يوم ، زورقا الى الشاطىء ليجيء بحاجة القافلة كلها من خشب ومياه عذبة• واقترب الزورق ، كما يفعل كل يوم أيضا ، من السفينة « سان انطونيو » التى ترسل بانتظام بعض بحارتها للاشتراك فى العمل اليومي

ولكن ، يا للدهشة ! لم يلق سلم من الحبال من السفينة « سان انطونيو » عندما اقترب الزورق منها ، ولم يتقدم أحد من بحارتها • ولما رفع بحارة الزورق أصواتهم منادين بحارة السفينة بأن يعجلوا بالمجيء ، كان الرد على صياحهم ان هذه السفينة لن تتلقى بعد الآن الأوامر من ماجلان ، بل من الربان جسبار كويسادا دون سواه • وصدم الرد بحارة الزورق، فلم يسعهم الا أن يعودوا الى سفينة القيادة مسرعين ، ليبلغوا أمير البحر ما حدث

وأدرك ماجلان فورا حقيقة الموقف : ان السفينة « سان انطونيو » قد أصبحت فى قبضة العصاة • ولكن ، حتى هذه المفاجأة لم تعكر لحظة واحدة صفاء ذهنه • فان أول ما فكر فيه ، أن يعرف مدى خطورة الحادث • فكم سفينة لا تزال خاضعة له ؟ وكم سفينة اتمردت عليه ؟

عاد الزورق الي السفن الاخرى واحدة واحدة ، ثم عاد لينبئه ان جميع السفن ، ما عدا السفينة « سنتياغو » قد انحازت الى العصاة ، وهى : السفينة « سان أنطونيو »

والسفينة « كونسبسيون » والسفينة « فكتوريا » وبذلك أصبحت ثلاث سفن ضد سفينتين ، بل سفينة واحدة ، اذ أن السفينة « سنتياغو » لا يقام لها وزن يذكر اذا احتدم بين السفن القتال

اذن ، فالقضية خاسرة • وان أى رجل آخر غير ماجلان ليعدها كذلك • فالعمل الذى وقف له ماجلان بضع سنين من حياته ، قد انهار كله فى ليلة واحدة • ولا يسعه أن أن يواصل سفره ، بسفينة واحدة ، نحو الهدف المجهول • ومع ذلك ، اذا كانت السفن الاخرى ضرورية له فليس فى مقدوره أن يرغمها على طاعته • ولا يمكن أن ينتظر نجدة من أية جهة •• وهكذا ، لم يبق أمام ماجلان غير الاختيار بين أمرين : أولهما وهو ما يبدو مطابقا للعقل والمنطق ، نظرا لتفوق خصومه ـ أن يعدل عن الموقف الذى وقفه الى الآن ، ويسعى الى التفاهم مع الربابنة الاسبانيين• والثانى ـ وهو ما يبدو على جانب من الحماقة وان كان بالغا منتهى الجرأة ـ أن يعمد الى هجوم خاطف لاعادة العصاة الى صوابهم ، برغم أنه قانط من النجاح !

☐

ان كل شىء يرجح الحل الأول • فان الربابنة الاسبانيين لم يوجهوا بعد أى تهديد الى ماجلان ، ولم يرسلوا اليه أى انذار • وسفنهم لا تزال جامدة فى أماكنها ، وليست هناك نية القيام بأى هجوم • وبالرغم من أنهم يملكون التفوق فى القوى ، فانهم لا يرغبون ، وهم على بعد آلاف الاميال من

وطنهم ، أن يخوضوا غمار حرب أهلية حمقاء. انهم يذكرون جيدا اليمين التى أقسموها فى كنيسة اشبيلية . ويعرفون جيدا ما هو العقاب المعيب الذى يحل بالعصاة والفارين من الجيش . وان رجالا من النبلاء أمثال جوان دى كرتاجينا ، ولويس دى مندوسا ، وجسبار كويسادا ، وانطونيو دى كوكا ، أولاهم الملك ثقته ، يهمهم ألا يعودوا الى آسبانيا ملطخين بالعار موصومين بالخيانة . ولهذا كله ، فانهم لا يتذرعون بتفوقهم العددى ، بل يعلنون منذ البداية استعدادهم للمفاوضة : فان غرضهم من الاستيلاء على السفينة «سان انطونيو» ليس اعلان العصيان ، بل الضغط فقط على أمير البحر ، وحمله على اعطائهم الايضاحات التى يطلبونها

اذن ، فالرسالة التى بعث بها جسبار كويسادا الى ماجلان باسم الربابنة الاسبانيين، ليست تحديا على الاطلاق. بل بالعكس ، لقد توجت بكلمة « استرحام » . وهى تبدأ بعبارات مهذبة جدا ، يبرر بها كاتبها العمل الذى أقدم عليه الربابنة . ان المعاملة المهينة ، التى لقوها من أمير البحر ، هى وحدها التى جعلتهم مرغمين على الاستيلاء على سفينة عهد الملك اليهم بقيادتها . ولكن هذا لا يعنى أنهم يفكرون فى منازعة ماجلان السلطات التى تلقاها من جلالته . وهم يكتفون الآن بمطالبة ماجلان بأن يحسن معاملتهم فى المستقبل . فاذا أجاب أمير البحر هذه الرغبة العادلة ، فانهم لا يخدمونه طائعين فحسب، كما يقضى عليهم واجبهم، بل يخدمونه باحترام تام

كانت هذه الرسالة تعبر عن رغبة واضحة في التفاهم. ولكن ماجلان قد اعتزم من ناحيته الالتجاء الى الحل الآخر، الحل الجرىء ! فقد أدرك بنظرة واحدة أين موضع الضعف عند خصـــومه : انهم مفتقرون الى رباطة الجأش . ولهجة استرحامهم تنم على أن زعماء العصـــاة ليسوا عازمين على الالتجاء الى الوسائل القصوى ، وهذا سبب ضعفهم . واذا عرف ماجلان كيف يستغل هذا النقص، قبل أن يتفقوا فيما بينهم ، فان الحظ سينتقل من ناحية الى ناحية ، والقضية الخاسرة يمكن أن تصبح رابحة !

غير أن الجرأة في نظر ماجلان هي أن يضرب ضربة قاضية يعد لها العدة بدقة واحكام ، ويوفر لها جميع عوامل النجاح حتى لا تتعرض لخطر الفشل . وقد يعتزم ماجلان الاقدام على عمل جرىء في لحظة واحدة ، ولكنه يقضي أياما أو شهورا في اعداد العدة له

وقد عقد ماجلان عزمه في لحظة واحدة على أن يوجه ضربة قاضية لخصومه الربابنة . ثم انصرف الى الاســـتعداد لها ودرس تفاصيلها . فقد أدرك انه يجب عليه قبل كل شيء أن يفعل ما فعله الربابنة بالأمس ، فيســـتولى على سفينة من السفن المتمردة ، لكي يسترد التفوق الذي فقده . غير أن المسألة التي كانت سهلة لديهم ستكون صعبة لديه . فقد داهم العصاة احـــدى السفن ليلا وهي جاثمة نائمة ، بينما كان ربانها ورجالها لا يســـاورهم أدنى قلق على مصيرها . ولم يكن أمام المهاجمين أن يتغلبوا على أيسر مقـــاومة ، أو يخوضوا أية معركة . أما الآن ، فقد طلع النهار . وربابنة

السفن العاصية الثلاث يرقبون بحذر كل حـركة على ظهر سفينةالقيادة ، ومدافعهم معدة لاطلاق قنابلها فى كل لحظة، وقاذفات السهام متحفزة • والعصاة يعرفون ماجلان معرفة جيدة ، ولا يجهلون أنه قد يقدم على هجوم متهور

نعم انهم يعرفون مبلغ شجاعته• ولكنهم لا يعرفون مبلغ مكره ، ولا يتصورون أن هذا الرجل السريع الخاطر سيضرب ضربته في وضح النهار ، مع حفنة من الرجال ، وعلى مرأى من سفن ثلاث كاملة السلاح

ومن ومضات عبقريته المدهشة ، انه لم يقع اختياره على السفينة « سان انطونيو » حيث ابن خاله مسكيتا سجين مكبل بالحديد ، ليضرب ضربته • فان العصـــاة ينتظرون طبعا أن يكون الهجوم الأول على هـــذه السفينة • وكانوا ينتظرون الهجوم من اليمين،ففاجأهم به ماجلان من اليسار، لا ضد السفينة «سان انطونيو» بل ضد السفينة «فكتوريا»

وقد أعد التفاصيل بدقة عظيمة للقيام بهذا العمـــل • وأول ما صنعه ، انه احتفظ بالزورق وبالرجال الذين جاءوا به حاملين « الاسترحام » والاقتراح بفتح باب المفاوضة مع جسبار دى كويسادا • وبهذا حصل على نتيجتين : الأولى ، انه أفقد العصاة بعض رجال السـفن المتمردة ، والثانية ، انه أصبح لديه زورقان بدل الزورق الواحد ، وهذا التفوق سيكون له فائدة حاســـمة كما سيتضح فيما بعـد • فان ماجلان أصبح فى وسعه أن يحتفظ بزورقه ، وان يرسل رئيس الشرطة فى ســـفينته (١) ، جوازيل غوميـــز دى

(١) يدعى رئيس الشرطة فى اسبانيا « الجوازيل » وهى كلمة عربية محرفة أصلها « الوزير »

اسبينوزا ، فى زورق الخصوم ، ومعه خمســـة رجال ، الى السفينة « فكتوريا » ليسلم رســـالة الى ربانها لويس دى مندوسا

ولم تثر الشكوك فى نفوس العصـــاة على ظهر السفينة عندما أقبل عليهم الزورق الصغير • ولم يساورهم أى قلق، اذ لا يمكن أن يهاجم خمسة رجال فى زورق ســفينة فيها ســـتون رجلا ، ويتولى قيــادتها ربان مجرب كلويس دى مندوسا ؟

انهم لا يرون الاسلحة التى أخفاها أولئك الرجال الخمسة تحت ثيابهم ، ولا يعلمون أن غوميز دى اسبينوزا قد كلف من قبــل أمير البحر بمهمة خطرة • وها هو غوميز يتسلق السفينة ببطء مقصود ، اذ أن كل دقيـــقة قد أعدت لأمر معين • وها هو يســـلم الربان لويس دى مندوسا كلمة من ماجلان ، يدعوه فيها الى مقابلته على ظهر سفينة القيادة

وقرأ مندوسا الكلمة• ولكنه لا يزال يذكر جيدا ما حدث على ظهر السفينة ترينيداد ، يوم اعتقل جوان دى كرتاجينا فجأة كأنه مجرم عادى • فهو اذن لن يدع أمير البحر يجره الى الفخ • ولما انتهى من القراءة ، ارتسمت على شـــفتيه ابتسامة متهكمة وقال فى نفسه : « لن تنالني ! » ولكن هذه الابتسامة تحولت فجأة الى صرخة ألم : فقد نفذ خنجر رئيس الشرطة الى عنقه !

وفى هذه اللحظة ذاتها ـ وهنا تتجلى الدقة المدهشة التى حسب بها ماجلان حسابا لكل دقيقة وكل متر من المسافة

الفاصلة بين السفينتين ـ فى هــذه اللحظة ذاتها ، تسلق السفينة المتمردة خمسة عشر رجلا بكامل أسلحتهم، يقودهم دوراتى بربوسا ، وقد نقلهم زورق السفينة « ترينيداد » ..

وجمد بحارة السفينة فى أماكنهم مذهولين ، يحدقون فى جثة ربانهم. وقبل أن يتسنى للبحارة الوقت الكافى لاتخاذ أى قرار ، كان دوراتى بربوسا قد تسلم قيادة السفينة ، فجعل يصــدر أوامره ، وراح البحارة يطيعون مرتعبين . وفى دقيقة واحدة ، رفعت المراسى ، ونشرت القلوع ، وقبل أن تدرك السفينتان الاخريان ما حدث ، كانت الســفينة « فكتوريا » قد اقتربت من سفينة القيادة

والآن ، تقف السفن الثلاث : « ترينيداد ـ وفكتوريا ـ وسنتياغو» تجاه السفينتين «سان انطونيو ـ وكونسبسيون» وتسد منفذ الخليج لتحول دون الخروج منه

وبهـذا الهجوم الخاطف ، مالت كفة الميزان من ناحيــة ماجلان ، وأصبحت القضية الخاسرة قضــية رابحة . وفى خمس دقائق، انتقل الربابنة العصاة من التفوق الى الضعف، ولم يبق أمامهم الا أن يهربوا ، أو يقاتلوا ، أو يســلموا أنفسهم بلا قيد ولا شرط . لكن أمير البحر قد احتاط لمنع هربهم . أما القتال ، فقد ضاعت الفرصــة لخوض غماره ، لأن هجوم ماجلان المفاجىء قد حطم شجاعة خصومه . وعبثا حاول جسبار دى كويسادا أن يحمل رجاله على القتال، وقد تقلد سلاحه كاملا، وأمسك رمحا بيد وسيفا باليد الاخرى. فالبحارة الخائفون لا يطيعون . وما وصل زورق آخر يحمل فريقا من رجال ماجلان ، حتى قضى على كل مقــاومة فى

السفينتين « كونسبسيون ــ وسان انطونيو »

وأخــرج ألفارو دى مسكيتا من سجنه ؛ واســـتعملت سلاسله لتقييد الربابنة العصاة !

▭

ان الصراع بين ماجلان والربابنة الاسبانيين كان شبيها ــ فى سرعته وشدته ــ بعواصف الصيف • فان أول قصف للرعود قد اقتلع العصيان من جذوره • غير أن هــذا الذى حصل قد لا يكون غير المرحلة السهلة من الصراع ، اذ أن معاقبة المذنبين ، من الناحية القانونية ، لابد أن تتبع بكل صرامة • وهنا جعل القائد المنتصر يستشير ضميره متسائلا عما يجب عليه أن يفعل • فان المرســوم الملكى يخوله حق الحياة والموت بالنسبة الى رجال السفن الخاضعين لقيادته • غير ان المذنبين الحقيقيين فى هــذا الحادث هم الرجال الذين أولاهم الملك ثقته • واذا أراد ماجلان أن يحافظ على سلطته، فيجب عليه أن يعاقب العصاة بصورة تكون عبرة للآخرين • ومع ذلك، فليس فى وسعه أن يعاقب جميع الذين تمردوا • وكيف يستطيع مواصـــلة الرحلة اذا نفذ القانون وأعدم خمس البحارة فى سفنه ؟ وهل فى مقدوره أن يستغنى عن مائة رجل ، وهو فى هذه المناطق الموحشة ، وعلى بعد آلاف الأميال من اسبانيا ؟ اذن ، لابد له من الرأفة بالذين كان يجب عليه أن يعدمهم • ولكن بعد أن يرعبهم بضربة تكون درسا لهم

وبعد تفكير طويل ، قرر ماجلان ألا يضحى غير رجـــل

واحد : جسبار دي كويسادا ، الذي استخدم سلاحه وأصاب رفيقه الأمين ايلورياجا اصابة قاتلة

وبدأت اجراءات المحاكمة الجنائية · وجيء بالكتبة والشهود ، وملأت المحاضر صفحات عديدة ، وفاقا للوائح والأنظمة، كما يحدث تماما في محاكم اشبيلية أو سرقسطة · ووقع الاختيار على مسكيتا رئيسا للمحكمة ، وحوكم جسبار دي كويسادا بتهمة العصيان والقتل · ونطق ماجلان نفسه بالحكم : لقد اعتبر المتهم مذنبا وحكم عليه بالاعدام ضربا بالسيف !

ولكن ، من ينفذ الحكم ؟ فانه يصعب أن يوجد بين البحارة من يتطوع للقيام بمهمة الجلاد · ولهذا ، فقد وجد الحل الآتي : فان البحار الملازم لكويسادا قد اشترك أيضا في الاعتداء على ايلورياجا ، وثبتت عليه أيضا تهمة القتل · ولكنهم سيعفون عنه اذا رضي بأن ينفذ بيده اعدام رئيسه · وكان موقف البحار مفجعا : فاما أن يعدم رئيسه واما أن يعدم هو · غير أنه قبل في النهاية، وبضربة سيف واحدة، قطع الرجل رأس ربانه وأنقذ رأسه

ثم نفذت الاجراءات المرعية في ذلك العصر البربري · وقطعت جثة جسبار دي كويسادا وجثة لويس دي مندوسا اربا ، وعلقت أعضاء الجثتين على أوتاد · وهكذا نقلت الى بتاجونيا العادات الوحشية كما كانت متبعة في برج لندن وغيره من أماكن تنفيذ أحكام الاعدام

وبقيت مسألة اصدار حكم آخر ، ولا يمكن أن يقال ان هذا الحكم كان أهون من الاعدام بالسيف · فان جان دي

كرتاجينا ، الزعيم الحقيقى للعصيان ، وكاهن السفينة،دأبا دائما على تحريض البحارة على التمرد، وذنبهما لايقل على ذنب الضابطين اللذين قتلا • ولكن كيف السبيل الى تكليف الجلاد باعدام الرجل الذى ألحقه الملك بالسفن بوصفه مساعدا للقائد العام ؟ وكيف السبيل الى سفك دم كاهن مسح رأسه بالزيت المقدس ؟ •• ان أمير البحر ماجلان الورع لايجرؤ على هذا • ومن جهة أخرى ، لا يمكن تركهما فى احدى السفن مكبلين بالحديد آلاف الاميال • وأخيرا ، تهرب ماجلان من اتخاذ أحد القرارين ، بأن حكم عليهما بأن يتركا على الساحل • ولما أقلعت السفن مستأنفة رحيلها ، أعطى الرجلان كمية من المؤن تكفيهما مدة من الزمن ، وأنزلا الى البر ، وتركا على شاطىء سان جوليان ، على أن يتولى الله تقرير مصيرهما النهائى !

□

فهل كان ماجلان فى تصرفه هذا على صواب أم ضلال ؟ وهل يمكن الاعتماد على المحاضر التى كتبها ابن خاله ألفارو دى مسكيتا ، ولم يترك فيها مجالا لدفاع المتهم ؟ ومن ناحية أخرى ، هل يمكن تصديق ما صرح به الضباط الاسبانيون فى اشبيلية فيما بعد من أن ماجلان دفع اثنى عشر دوكا(1) لرئيس الشرطة ورجاله ، ليغتالوا لويس دى مندوسا • وأنه وعدهم علاوة على ذلك بأن يعطيهم أموال الضابطين

(1) الدوكا عملة ذهبية كانت تساوى نحو عشرة فرنكات وأول من صك هذه العملة جمهورية البندقية

الاسبانيين ؟٠٠ فهل ينبغى أن نأخذ بهذه الاقوال التى لم يرد عليهـــا ماجلان لأنه مات فى الطـــريق ولم يعد الى اسبانيا ؟

واذا كان التـــاريخ قد برر عمــــــل ماجـــلان وبرر تصرفه ، فيجب ألا يغيب عن البـــال ان التـــاريخ دائما مع الغالب ضـــد المغلوب ٠ وقد كتب هيبل (١) يقول : « لا يهم التاريخ أن يكون حادث معين قد وقع على هذا النحو أو ذاك ٠ فالتاريخ دائما يقف فى صف الغالب » ٠ ولو لم يكن ماجلان قد وجد الممر الذى بحث عنه ، وحقق العمـــل العظيم الذى خلد اسمه ، لوصف التـــاريخ اعدام الضابطين الاسبانيين بانه جريمة أثيمة ٠ ولكن ، لما كانت الحوادث قد تطورت لمصلحته ، فان ستار النسيان قد أســـدل على الذين ماتوا ميتة لا مجد فيها ٠ ونجاح ماجلان قد برر قسوته وصلابته من الناحية التاريخية

(١) شاعر ألمانى له مسرحيات رائعة ٠ (١٨١٣ ـ ١٨٦٣)

الساعة الرهيبة

ابريل ١٥٢٠ ـ نوفمبر ١٥٢٠

أرغم الشـــتاء سفن ماجلان على البقاء أربعة أشهر فى خليج سان جوليان الكئيب الملعون • والوقت يمر فارغا ثقيلا• ولهذا فان أمير البحر ، الذى علمته التجارب أن البطـــالة تحفز البحارة الى التململ ، قد قرر أن يشغل أوقاتهـــم بأعمال مستمرة ، فأمرهم باصلاح السفن التى أنهكتهـــا رحلة دامت سنة كاملة ، وأصدر تعليماته بقطع الاشـــجار وصنع ألواح الخشب • ولعله ابتكر أعمالا لا ضرورة لها ، ليجعل البحارة يعتقدون أن الرحلة ستستأنف قريبـــا ، وأنهم أوشكوا على مغادرة ذلك القفر البارد متجهين نحـــو الجزر الساحرة

وأخيرا ظهرت بوادر الربيع ••ففى الاسابيع الماضـــية القاتمة الباردة ، خيل للبحارة أنهم سجناء بقعة جـــرداء ، لا انسان فيها ولا حيوان • وزاد هذا الشعور انحطـــاط معنوياتهم • وذات صباح ، ظهر على قمة تل خيال غريب ، خيال رجل ، ظن البحـــارة بادىء الأمر انه مخلوق غير بشرى ، فقد بدا لهم بقامة هائلة، أثارت دهشتهم وخوفهم• وكتب عنه بيير مرتير يقـــول ان قامته كانت غير عادية • أما بيجافيتا فكتب ما يلى :

« كان طويل القامة حتى أن أطولنا لم يبلغ نصف قامته الهائلة • وكان قوى البنيـــة ، عريض الوجه ، حول عينيه هالات حمر وصفر ، وعلى خديه بطحتان فى شكل قلب • وكان شعره قصيرا أبيض • أما ثيابه فمن جلود بعضـــها موصول ببعض »

وأثار دهشة البحارة على الخصوص منظر قدمى هـــذا

الوحش البشرى • وبسبب قدميه الكبيرتين أطلقوا على سكان تلك البلاد اسم « باتاجون » وعلى البلاد نفسها اسم « باتاجونيا » • وكلمة «باتاجاو» معناها بالأسبانية « القدم الكبيرة »

غير أن الخوف الذى بعثه فى نفوسهم ذلك العملاق سرعان ما اختفى • فقد بسط الرجل ذراعيه ضاحكا ، وجعل يرقص ويغنى ويرش الرمل على شعره المصبوغ • وكان ماجلان قد ألف فى رحلاته السابقة عادات سكان الأقطار النائية ، فأدرك معنى حركات المارد ، وفسرها بأنها رغبة منه فى الاتصال السلمى مع الأغراب • فأصدر أمره الى أحد البحارة بأن يرقص مثل الرجل ويرش الرمل على رأسه

وكان فرح البحارة عظيما عندما رأوا الرجل يتقبل ذلك كأنه اشارة ترحيب ، ويقترب منهم • وللمرة الأولى ، وجد البحارة وسيلة للتسلية • فقد وضعوا أمام العملاق مرآة حدق فيها ثم قفز مدهوشا الى الوراء ، فسقط على الارض وسقط معه أربعة رجال • وكان نهمه فى التهام الطعام عجيبا • وقد نسى البحارة المساكين ، وهم ينظرون اليه، ان جراياتهم محدودة • وفتحوا أعينهم مذهولين عندما رأوا « جرجانتوا » (١) هذا يشرب جردل ماء دفعة واحدة ، ويلتهم نصف سلة من البقسماط كأنه يأكل قطعة من الحلوى • ويا لها من قهقهة ، عندما ابتلع العملاق بضعة

---

(١) جرجانتوا : مارد نهم • بطل رواية للكاتب الفرنسى رابليه بهذا العنوان • نشرت سنة ١٥٣٤

جرذان بجلدها وعظامها ، قدمها له البحارة !٠٠ ونشأت صداقة بينهم وبين ذلك الرجل المتوحش ٠ ولما أهـداه ماجلان بضعة أجراس صغيرة ، ذهب العملاق ثم عاد ومعه غيره من العمالقة ، و « العملاقات » أيضا !

ولكن عدم الحذر من جانب أولئك المساكين أبناء الطبيعة، سيكون سبب هلاكهم ٠ فقد تلقى ماجلان من بيت الهند - كما حدث من قبل لكريستوف كولومب وغيره من المكتشفين - تعليمات صريحة بأن يحمل معه عند عودته الى اسبانيا ، بعض نماذج لا من النبات والمعادن فقط ، بل من الاجناس البشرية أيضا

وخيل للبحارة ان اصطياد مثل هذا المارد حيا لن يكون أسهل من اصطياد حوت يمسك من زعانفه ٠ فهم يدورون مرتبكين حول أولئك « الباتاجون » ولكن الشجاعة تخونهم فى اللحظة الاخيرة ٠ وفى النهاية ، عمد البحارة الى حيلة خبيثة ٠ فقد أعطوا لاثنين من العمالقة كمية من الهدايا اضطر الرجلان أن يحملاها باليدين كى لا يقع منها شيء على الأرض ٠ ثم أشار البحارة الى سلسلتين أخريين من الحديد اللامع ، وسألوهما اذا كان يريدان أن يضعا هذه الحلى فى أقدامهما ٠ فضحك الرجلان فرحين ، وأشارا بأنهما يريدان ذلك ٠ وظلا واقفين ، وفى أيديهما الهدايا، ينظران الى البحارة وهم يضعون فى أقدامهما تلك السلاسل التى تنبعث منها رنات عذبة ٠٠ ثم قضى الأمر !

كبل البحارة الماردين بالقيود الحديدية ، وأصبح فى وسعهم الآن أن يطرحوهما على الارض بلا خوف ، كأنهما كيسان من الرمل

وأرسل الماردان التعسان صيحاتهما عبثا فى الفضاء ، وجعلا يتخبطان على رمل الشاطىء ، ويضربان بأيديهما يمينا ويسارا ، ويستنجدان بربهما « سيتيبوس » الذى وضع شكسبير اسمه فى احدى رواياته ..

جر البحارة العملاقين على الرمل كأنهما ثوران مقهوران فى حلبة المصارعة ، وحملوهما الى السفن . ولكنهما سيموتان ميتة بشعة فيما بعد ، بسبب حرمانهما من الطعام !

وقد قضى هذا العدوان من رسل المدنية على علاقات الصفاء التى كانت قائمة بينهم وبين السكان دفعة واحدة ومنذ ذلك الوقت ، ابتعد هؤلاء « الباتاجون » عن البحارة . وأراد بعض الرجال ذات يوم أن يقبضوا على بضع نساء من القوم ، ولكن المتوحشين فروا أمامهم ، ثم عادوا على أعقابهم وقتلوا واحدا من البحارة المطاردين

حقا ، ان خليج سان جوليان هذا سيىء الطالع على الاسبانيين وسكان البلاد على السواء . فان ماجلان هنا لا يلاقى نجاحا فى شىء يقدم عليه . ويبدو أن الشؤم ملازم لهذا الشاطىء اللعين . ولهذا ، فان رجال السفن بدأوا يشكون ويطالبون بالعودة سريعا الى الوطن . وقال ماجلان فى نفسه : نعم، يجب أن نرحل سريعا ، ويجب أن نستأنف السير . ونفد الصبر من الجانبين وتزايد هذا الشعور يوما بعد يوم . وما كادت عواصف الشتاء تهدأ ، حتى قرر ماجلان القيام برحلة كشف نحو الجنوب . فأرسل لهذا الغرض السفينة « سنتياغو » بقيادة الربان الأمين سراو .

الذى كان عليه أن يسير فى جهة معينة ، ويفحص الخلجان الممتدة على الساحل ، ويعود بعد زمن معين حاملا معه أنباء ما عثر عليه

وانقضت المدة المعينة ، وبات ماجلان يرقب البحر قلقا، لعله يرى سفينة سراو مقبلة من بعيد • وذات يوم ، حدث شيء جديد ولكن ليس من ناحية البحر • فقد هبط من أعلى التل رجلان يتمايلان من العناء ، وظنهما البحارة لأول وهلة من الباتاجون ، وتأهبوا لاطلاق السهام عليهما • ولكن الرجلين العاريين صاحا ببعض كلمات اسبانية • واتضح انهما من بحارة السفينة « سنتياغو »

انهما يحملان نبأ سيئا • فقد وصل سراو ، فى سيره جنوبا ، الى مصب نهر يكثر فيه السمك : نهر ريودىسانتا كروز • ولكن عاصفة هوجاء داهمت السفينة فدفعتها الى الشاطىء وتحطمت • وتمكن رجال السفينة كلهم من النجاة ، ما عدا واحدا من الزنوج • وهم الآن ينتظرون النجدة فى بؤس وفزع عند مصب ريو دى سانت كروز • أما هما ، فقد سارا على أقدامهما على طول الساحل أحد عشر يوما ، حتى بلغا خليج سان جوليان ، وكانا يقتاتان بالاعشاب وجذور الاشجار !

وأرسل ماجلان فى الحال زورقا عاد ببحارة السفينة الغارقة • ولكن القافلة فقدت احدى سفنها ، وهى أسرع السفن على الاطلاق • وكانت هذه أول خسارة تحل بالعمارة منذ بدء الرحلة ، وهى ، ككل خسارة تقع فى بقعة نائية من العالم ، لا يمكن أن تعوض ••

وأصدر ماجلان أمره باستئناف السفر ، فى الرابع والعشرين من شهر أغسطس ، وألقى نظرة أخيرة على المذنبين العاصيين اللذين تركا فى ذلك المكان ، وعلى خليج سان جوليان المشئوم

□

لا بد أن تكون الأيام التالية أسوأ الأيام فى حياة ماجلان : الأيام الوحيدة التى شعر فيها ذلك الرجل الواثق من نفسه عادة ، بأن شجاعته تخونه . ومن مظاهر هذه الحالة النفسية ، تصريحه بلهجة تصنع فيها العزم ، عند اقلاع السفن من سان جوليان، بأنه مصمم على السير جنوبا فى محاذاة الساحل ، حتى يصل اذا لزم الأمر الى خط العرض ٧٥ . . . فاذا لم يجد الممر الذى يبحث عنه ، فعندئذ فقط يتبع الطريق المألوف ، الذى يدور حول رأس الرجاء الصالح . فان هذه العبارة : «اذا لزم الأمر» كافية وحدها للدلالة على أنه فقد الثقة بنفسه . فهو للمرة الأولى يشير الى امكان العودة الى الوراء . ويعترف أمام ضباطه أن الممر الذى يبحث عنه قد لا يكون له وجود ، أو أنه موجود فى مياه المحيط المتجمد فى منطقة القطب الجنوبى

انه لم يفقد الاعتقاد الراسخ بوجود الممر فحسب . . بل ان الشعور الداخلى الذى كان يحمله على الاعتقاد بوجود الممر قد فارقه أيضا فى الساعة الفاصلة

وفجأة ، وعلى أبواب النصر، تعلو الغشاوة نظره الثاقب كأن الآلهة الناقمة قد عصبت عينيه . . ففى ذلك التاريخ،

اى فى يوم ٢٦ أغسطس سنة ١٥٢٠ ، الذى أصدر فيه . ماجلان أمره الى بحارته بالنزول الى البر مرة أخرى ، كان الرجل قد بلغ فعلا الهدف الذى يقصد اليه !

انه لا يبقى عليه غير اجتياز درجتين من خط العرض ، والسير فى البحر مدة يومين اثنين بعد أن مكث فيه ثلاثمائة يوم ، ولم يبق الا قطع بضعة أميال بعد أن قطع آلاف الأميال . نعم لم يبق عليه غير هذا ، ليستطيع أن يرسل صيحات الفرح . ولكن ، يا لسخرية القدر وقسوته ! فان المسكين لا يعرف ، أن ما يبحث عنه قد أصبح فى متناول يده . وها هو ذا يقضى شهرين طويلين منتظرا ، عندمصب ذلك النهر الصغير ، على ذلك الساحل الأجرد المهجور ، أشبه برجل فاجأته عاصفة الثلج ففقد جلده ، غير مدرك أنه عند باب بيته ، وأن ليس عليه الا أن يخطو بضع خطوات ليظفر بالنجاة

ان ماجلان ينتظر شهرين والغيظ يأكل أحشاءه ، ويتساءل هل يبلغ ذلك الممر ، فى حين أن المضيق الذى سيخلد اسمه الى الأبد موجود على مسيرة يومين من المكان الذى ينتظر فيه ! والرجل ذو الارادة الحديدية الذى يريد أن ينتزع من الأرض سرها ، سيظل قلبه حتى اللحظة الأخيرة ، نهبا للشك يمزق نياطه !

□

ولكن ما أروع النجاة بعد ذلك العذاب ! ان السعادة لا يبلغ أوجها غير رجل ينطلق من أعماق اليأس !

ففى ١٨ اكتوبر سنة ١٥٢٠ ، بعد ترقب عقيم استغرق شهرين أصدر ماجلان مرة أخرى أمره باستئناف الرحيل • فأقيمت صلاة ، اشترك فيها جميع البحارة ، ثم نشرت السفن قلوعها واتجهت الى الجنوب • وأسرعت الزوابع مرة أخرى لملاقاتها ، فاضطر البحارة أن يغالبوا عناصر الطبيعة ساعة بعد أخرى ، ولم يكن يقع النظر على شىء من الخضرة • فالساحل يمتد دائما كما كان : مقفرا خاليا موحشا •• لا شىء غير الرمال والصخور ، ثم الصخور والرمال !•• وفى اليوم الرابع ، أى فى ٢١ أكتوبر سنة ١٥٢٠ ، رأى البحارة لسانا داخلا فى البحر تكتنفه صخور بيضاء ، وهو يشرف على ساحل البحر مشققا ممزقا•ووراء ذلك الرأس ـ الذى أطلق عليه ماجلان « رأس العذارى » اكراما للعذارى القديسات ـ يمتد خليج عميق ذو مياه قاتمة • فاقتربت منه السفن •• وما كان أروع ذلك المنظر وأغربه ، حين أخذته الأعين : جدران من الصخور ترتفع عمودية ، تتخللها شقوق عميقة ، وتبدو من بعيد قمة عالية يكللها الثلج

ها هو ذا كل شىء ميت أمام السفن وحولها ••فأنظار البحارة لا تقع الا على قليل من الاشجار والأشواك • وهزيم الرياح وحده يمزق سكون ذلك الخليج الأجرد • فأخذرجال السفن ينظرون الى المياه الكئيبة، وقد خيل اليهم أنه لايمكن أن يكون هذا الخليج الذى تحيط به الجبال ، وهذه المياه السوداء كمياه الجحيم ، منفذا الى ساحل منبسط ، أو الى بحر الجنوب ، ذلك البحر الصافى ، النير ، الـذى تشرق

عليه الشمس ، والذى طالما رأوه فى أحلامهم • وأجمع قادة السفن على أن هذا الشق لا يمكن أن يكون غير خليج ضيق طويل ، كتلك الخلجان الكثيرة فى شمال أوربا ، فلا فائدة من فحصـــه وسبر غوره • لقد ضيع البحارة وقتا طويلافى فحص جميع الخلجان على ساحل باتاجونيا ، فلا داعى اذن الى الوقوف فى ذلك المكان • وعلى السفن أن تســير الى الأمام • واذا لم يظهر الممر المنشـــود فى وقت قريب ، فلتغتنم السفن فرصة الفصل الملائم من فصول السنةلتعود الى الوطن ، أو فلتسر الى المحيط الهندى بطريق رأس الرجاء الصالح

غير أن ماجلان ، الذى تملكته فكرة الطريق الخفيــة ، ألح على رجاله بأن يفحصــوا الخليج الغريب • ونفذ قادة السفن أمره متذمرين • وكانوا يفضلون مواصلة الســير الى الأمام • وقد كتب بيجافيتا عن ذلك يقول : « كنـــا نظن جميعا أن ذلك الخليج مغلق »

وتقرر أن تبقى عند مدخل الخليج ، سفينة القيـــادة ، والسفينة « فكتوريا » وأما السفينة « سان أنطونيـــو » والسفينة « كونسبسيون » فقد تلقتا الأمـــر بالانطلاق الى أبعد ما يمكن أن تصلا داخل الخليج ، على أن تعودا بعد خمسة أيام على الأكثر • فان الوقت أصبح ثمينا ، والمؤن تنقص يوما عن يوم • ولا يسع ماجلان المكث هنا طويلا كما فعل فى ريو دى لابلاتا • وتلك الأيام الخمســة هى آخر سهم يطلقه فى هذه المحاولة !

ها قد أزفت الساعة الرهيبة ! •• فقد اعتزمت السفينة

« ترينيداد » والسفينة « فكتوريا » الباقيتان مع ماجلان ، استكشاف الجزء الخارجى من الخليج، الى أن تعود السفينتان الاخريان • ولكن الطبيعة تتمرد مرة أخرى ، كأنها تريد منعهم من تمزيق الستار عن أسرارها • فقد هبت فجأة عاصفة عنيفة كالعواصف المألوفة فى تلك المناطق ، والتى كتب عنها فى الخرائط الاسبانية القديمة : « هنا لا توجد فصول ملائمة طول السنة ! »

وفى لحظة واحدة ، امتلأ الخليج بزبد أبيض • وانقطعت الحبال المشدودة الى المراسى فى السفينة « ترينيداد » والسفينة « فكتوريا » • وجعلت الرياح تدفع بالسفينتين ذات اليمين وذات اليسار ، وقد طويت فيهما القلوع • وساعدهما الحظ فلم تقذف بهما الرياح على صخور الشاطىء • واستمرت العاصفة يومين كاملين • غير أن ما يشغل بال ماجلان ليس مصيره هو ، اذ ان خطر الاندفاع الى الشاطىء أهون على سفينته ، منه على السفينة « سان أنطونيو » والسفينة «كونسسيون» اللتين فاجأتهما العاصفة بلا شك داخل المضيق ، حيث لا تجدان الفسحة الكافية للتمايل يمينا ويسارا ، ولا تتمكنان من القاء مراسيهما والالتجاء الى مكان أمين • ولابد أن تكون السفينتان قد هلكتا ، الا اذا أنقذتهما معجزة !

كان الانتظار مقلقا فظيعا • فمر يوم ، ثم آخر ، فثالث، فرابع ، والسفينتان لم تعودا بعد • وقد رأى ماجلان الحقائق جلية أمامه: فاذا هلكت السفينتان، ضاع كل شيء• ولن يمكنه أن يواصل رحلته بالسفينتين الباقيتين وحدهما •

وعلى هذا ، يكون حلمه ، ومشروعه ، قد تحطما على هذه الصخور

وأخيرا ، صدرت اشارة من حجرة المراقبة . ولكنهاخيبة أمل مرة ! فان ما رآه البحار المراقب ليس السفينتين المنتظرتين،ولكنه عمود من الدخان يتصاعد عن بعد.ويا لها من لحظة مروعة : عمود من الدخان ! ان هذا لا يدل الا على شيء واحد ، وهو ان بحارة هلكت سفينتهم وهم يطلبون النجدة . اذن ، فالسفينة « سان أنطونيو » والسفينة « كونسبسيون » وهما أحسن السفن الاربع ، قد اصطدمتا بالشاطيء ، ومشروع ماجلان فشل فى هذا الخليج الذى لا اسم له !.. وتأهب ماجلان لاصدار أوامره بانزال الزوارق الى الماء ، والاسراع الى البحارة المنكوبين لانتشالهم

ولكن الحالة تتغير فى هذه اللحظة الرهيبة

قلوع فى الأفق ! .. سفينة قادمة !.. الحمد لله تبارك اسمه ! .. لقد نجت على الأقل احدى السفينتين !..

كلا ! بل ان السفينتين معا قد عادتا سالمتين : السفينة « سان أنطونيو » والسفينة « كونسبسيون » !

ولكن ، ماذا حدث ؟ فما كادت السفينتان تبدوان للانظار ، حتى لمع منهما برق ثم تلته بروق ، وحمل الصدى زمجرة المدافع وهي تقصف كالرعود ! فماذا حدث ؟ لقد اقتصدت السفن حتى تلك الساعة فى ذخيرتها من البارود. فلماذا تطلق المدافع تلك الطلقات المتوالية ؟ ولماذا رفعت على الصوارى جميع الرايات والاعلام ؟ لماذا يلوح الربابنة والبحارة بأيديهم من بعيد ويرسلون الاصوات صائحين ؟

ان المسافة ما زالت بعيدة والاذن لا تستبين الكلمات التى تطلقها حناجرهم · ولكن جميع البحارة ، وماجلان قبل الجميع ، قد فهموا معنى ذلك كله : انها لغة الانتصار !

والواقع ، أن النبأ الذى حملته السفينتان كان نبأ مباركا ! ·· وقد أصغى ماجلان ، وقلبه مفعم بالفرح ، الى التقرير الذى رفعه اليه سراو ··

كانت الرحلة شاقة فى بدئها · وكانت السفينتان قد توغلتا الى بعيد داخل الخليج عندما هبت العاصفة · وبالرغم من أن البحارة أسرعوا فطووا قلوعهم ، فقد دفعتهم الأمواج الى الأمام · وظنوا انها ستقذف بهم الى الشاطىء فى طرف الخليج · ولكنهم أدركوا فجأة أن الخليج غير مغلق ، كما كانوا يظنون ، بل مفتوح خلف نتوء صخرى فى شبه قناة ·فسلكوا هذه الطريق الهادئة ووصلوا الى خليج ثان، يضيق ثم ينفرج · وهكذا ظلوا يتقدمون خلال ثلاثة أيام دون أن يصلوا الى نهاية تلك الطريق المائية · نعم انهم لم يعثروا على منفذ لها من الناحية الاخرى ، ولكن هناك شيئا أكيدا ، وهو ان هذه الطريق ليست نهرا · فالمياه فيها ملحة ، والفرجة بين البحر والساحل واضحة منتظمة ·فهى لا تضيق شيئا فشيئا كمجارى الانهار كلما بعدت المسافة نحو الداخل · بل بالعكس ، تتسع ولا تضيق ، وتظل محتفظة بعمقها · ولهذا،فان الأدنى الى الصواب أن يكون هذا الخليج الضيق ، الذى يشبه القناة ، مؤديا الى بحر الجنوب ، الذى ينشده الباحثون من زمن بعيد ، والذى

رأى نونيز دى بلبوا (١) شواطئه قبل ذلك ببضعة أعوام، من أعالى جبال بناما

ويمكننا أن نتصور الفرح الذى بعثه فى نفس ماجلان هذا النبأ المفعم بالأمل • فقد كان مصمما على العدول عن مواصلة رحلته ، وكان يفكر فى العودة بطريق رأس الرجاء الصالح ، ولا يعلم أحد أية صلوات توجه بها فى خلوته الى الله والقديسين ، وأى نذور تقيد بها بعد أن رأى حلمه يتحقق فى الساعة التى كان مشرفا فيها على التراجع • فينبغى اذن أن لا تضيع لحظة واحدة •• فلترفع المراسى ، وتنشر القلوع !

طلقات أخيرة من المدافع لتحية الملك ! وصلاة أخيرة على عزم القائد العام ! ولتنطلق السفن بشجاعة فى هذا السرداب ! فاذا وجد ماجلان فى هذه المياه السوداء طريقا مؤدية الى البحر الممتد من الناحية المقابلة ، فسيكون أول من اكتشف الطريق لتحقيق الطواف حول العالم ••

ودخلت السفن الأربع المضيق ، الذى دعاه ماجلان « مضيق جميع القديسين » نسبة الى اليوم الذى تم فيه هذا العمل المجيد ، ولكن الاجيال التالية ، المعترفة بالجميل ، سمته « مضيق ماجلان ! »

☐

انه لمنظر عجيب ذلك الذى وقعت أعين البحارة عليه ،

---

(١) نوينزدى بلبوا : ضابط ملاح اسبانى • عبر بلاد بناما من الشرق الى الغرب ، واشرف على المحيط الهادىء فكان أول أوربى رأى ذلك المحيط ، سنة ١٥١٣ • وقد أعدم فى سنة ١٥١٧

عندما تقدمت السفن الأربع ، دون ضـــوضاء ، فى ذلك الخليج الأسود الموحش ، حيث لم يدخل رجل من قبل . لقد كان صمت الموت يكتنفهم من كل جانب، وكأن الجدران الصخرية تحدق فيهم بنظرات جامدة . وكانت صفحة الماء قاتمة تنعكس عليها سـماء أشد قتامة . والسفن تتلمس طريقها بأناة فى ذلك العالم الجهنمى

ومن بعيد تلمع قمم الجبال المكسوة بالثلج ، وتهب منها فى الليل رياح باردة . ولا تقع العين على كائن حى . ومع ذلك ، فلا بد أن يكون هناك بشر يسكنون تلك المناطق ، لأن نيرانا تتراءى فى الظلام . ولهـــذا ، فان البحارة قد أطلقوا على هذا المكان اسم « أرض النار »

ولم تكن الآذان تسمع صوتا . ولا العيون ترى خيالا . وقد أرســل ماجلان بعض البحارة فى زورق الى الشـــاطئ ، فلم يجدوا أى نوع من المساكن ، بل وجدوا بضع عشرات من القبور المهجورة ، وكلب بحر ، قذفت أمواج البحر جثته على رمال الشاطئ

ووقف البحارة ، وقد انقبضت صدورهم ، ينظـــرون بدهشة الى ذلك المشهد الموحش . وخيل اليهم انهم نقلوا فجأة الى عالم آخر ، الى مكان ما فى القمر ! ومع ذلك فان عليهم أن يسيروا الى بعيد ، وبلا توقف ، فالنســيم يدفع السفن فتمخر المياه السوداء ، التى لم تمخر عبابها سفينة من قبل، والمسابر تلقى فى البحر بلا انقطاع ولكنها لاتصل أبدا الى القرار ، وماجلان يرقب ما حوله قلقـا ، وينظر الى جميع الجهات خشية أن يبدو الخليج فجأة مغلقا أمامه

ولكن شيئا من هذا لم يحدث • بل ان جميع الدلائل تشير الى أن هذه الطريق ستؤدى فى النهاية الى البحر •غير أن هذه اللحظة لا تأزف ، والطريق لا تزال غامضة ، والنفوس لا تزال مضطربة - والرحلة الساحرة سائرة فى ذلك الظلام المخيف ، يواكبها هزيم الرياح المنبعثة من الجبال

والطريق خطرة •• فان هذا الممر المائى لا يشبه فى شىء تلك القناة الواسعة المريحة التى رسمها خيال العالمين شونز ومرنان بيهايم ، فى نورمبرج ، على خرائطهما ،وهما قابعان فى سكون مكتبهما • واذا كان هذا الممر يدعى الآن « مضيقا » ، فما ذلك الا على سبيل التورية • فهو ، فى الواقع، سلسلة متصلة من الشقوق، وسراديب من الخلجان والقنوات ، لا يسهل اجتيازها الا بالتغلب على عدة صعاب، والاستعانة بخبرة طويلة فى الملاحة

ان ماجلان يقسم سفنه قسمين، كلما بلغ منحنى فى الخليج • وبينما تبحث سفينتان عن الطريق ناحية الشمال ، تبحث السفينتان الأخريان عنها ناحية الجنوب • وهو يظن أنه ولد تحت طالع سىء ، ولذا ينبغى أن لا يعتمد على حظه ، فلا يدع للمصادفات أمر اختيار الطريق الملائمة، من مختلف الطرق التى تفتح أمامه • فهو يبحث ويستكشف ليجد الطريق الصالحة • وهكذا انتصرت مخيلته العجيبة كما انتصرت فضيلته العظمى ، فضيلة الثبات الذى لا تنال منه الصعاب

□

اجتازت السفن المضايق الأولى ، ثم التالية ، بدون

حادث . ووصل ماجلان مرة اخرى الى شبكة جديدة ، تتفرع منهـا الطريق يمينا ويسارا . وقسم ماجلان مرة اخرى سفنه قسمين . فتلقت السفينة « سان أنطونيو » والسفينة « كونسبسيون » أمرا بمواصلة السير الى الجنوب الشرقى ، بينما يقوم هو ، بسفينة القيادة ، ومعها السفينة « فكتوريا » باستكشاف القناة الى الجنوب الغربى . وضرب ماجلان موعدا للقاء بعد خمسة أيام على الأكثر ، عند مصب نهر صغير أطلق البحارة عليـه « بحـر السردين » لكثرة الأسماك فيه . وأعطيت لقيادة السفن تعليمات بالغة الدقة تفاديا لضياع الوقت

وأزف وقت الرحيل، واستعد البحارة لنشر قلوعهم . ولكن شيئا جديدا حدث فى اللحظـة الاخيرة : فقـد دعا ماجلان ربابنة السفن ، لأنه يريد أن يطلع على حالة التموين ، ويعرف راى الربابنة فيما يحسن أن يصنعوا : هل يواصلون السفر ام يرجعون على أعقابهم ؟

ماجلان يريد أن يعرف راى ربابنته ؟ ماذا حدث اذن ؟ ولماذا يلح ليعرف رأيهم ، وهو الذى لم يسمح لأحد منهم من قبل بانتقاد اوامره أو توجيه سؤال اليـه مهما يكن تافها ؟ وكيف طرأ ذلك التغير على مسلكه ؟

على أن الواقع انه ليس أقرب الى المنطق من هذا المسلك . فان الحاكمين بأمرهم لا يصيخون الى آراء غيرهم الا بعد أن يكونوا قد أحرزوا النصر . والآن وقد وجـد ماجلان الممر الذى يبحث عنه ، فانه لم يعد يخشى سؤالا يوجه اليـه . والآن وقد أصبحت الورقة الرابحة فى يده ، ففى وسعه أن

يلبى رغبة ربابنته ، ويلقى بأوراقه على المائدة ، وانه ليسير على المرء أن يكون عادلا فى أيام السعد ، عسير عليه ذلك فى أيام الشؤم . فهذا الرجل الذى كان سجين صمته يستطيع الآن أن يتكلم ومنذ اللحظة التى انكشف فيها نقاب سره ، أصبح فى مقدوره أن يتبادل الآراء مع معاونيه

ذهب الربابنة اليه وقدموا تقاريرهم التى لم يكن فيها ما يبعث السرور فى نفس ماجلان ، فقد نقصت المؤن نقصا مروعا . ولم يبق منها غير ما يكفى ثلاثة اشهر تقريبا

وهنا تكلم ماجلان . . .

لقد بلغت السفن الهدف الاول من رحلتها وهو الممر المؤدى الى بحر الجنوب ، فهل يكتفى ماجلان بهذا الفوز ، أم يواصل انجاز كل ما وعد به الامبراطور ، فيبلغ جزر التوابل ، ويستولى عليها باسم اسبانيا ؟

نعم ، انه يعلم ان المدخر من المؤن محدود جدا ، وان هناك عقبات كبيرة لا بد من التغلب عليها . ولكن الرحلة لو كللت بالنجاح ، لظفر الجميع بالمجد والثراء . انه ما زال قويا لا يتزعزع ، غير أنه يريد معرفة رأى ضباطه قبل أن يتخذ قراره

ان الرد الذى تلقاه ماجلان من الربابنة وقادة السفن لم يصل الينا ولكن يغلب على الظن أن معظمهم لاذ بالصمت ، لأنهم يذكرون جيدا ما حدث على ساحل سان جوليان ، وما حل برفاقهم من عذاب . وليس فى معاكسة ارادة هذا الرجل مغنم ولا راحة . ولكن واحدا منهم فقط وجد فى نفسه الجرأة فعبر عن رأيه بصراحة وجلاء ، وهو استيفاو

غوميز ، المكلف بتسيير السفينـــة « سان أنطونيو » وهو برتغالى ، يقال انه من أقارب ماجلان . فقد قال غوميز أنه ، ما دامت الدلائل تشير الى أنهم اكتشفوا الممر المنشـــود ، فخير لهم أن يعودوا الى أسبانيا ، ثم يستأنفوا الرحلة الى الجزر بسفن جديدة . فهو يرى أن سفن القـــافلة لم تعد صالحة لمواصلة السفر ، ولم يعد المخزون من المؤن كافيا ، ولا يعلم أحد الى أية مسافة يمتد بحر الجنوب . فاذا تاهوا فى هذا المحيط المجهول ، ولم يبلغوا سريعا مرفأ أمينا ، فان السفن صائرة لا محالة الى الهلاك !

ان الحكمة هى التى نطقت بلسان استيفاو غوميز . ويبدو أن بيجافيتا ، الذى يسىء الظن فى جميع الذين لا يتفقون فى الراى مع ماجلان ، قد ظلم هذا الرجل المجرب ، بادعائه أن عوامل وضيعة دفعته الى ابداء هذا الرأى . فان الاقتراح الذى تقدم به استيفاو غوميز صائب ، من الناحية المنطقية. ولو عمل به ، لأدى الى انقاذ حياة ماجلان نفســه ، وحياة نحو مائتين من رفاقه

ولـــكن القائد لا تهمـــه حياته الفانية ، بل عمله الخالد ! والعمـــل الجرىء كثيرا ما يكون غير معقـــول !.. وقد تكلم ماجلان مرة أخرى ليرد على استيفاو غوميز : نعم ، ان هناك صعوبات كبيرة يجب قهرها ، وقد يقاسى البحـــارة الجوع وغيره من الوان الشقاء . ولكنه يرى مواصلة السير وبلوغ البلاد التى وعد الأمبراطور أن يفتحها باسمه ، حتى لو اضطر البحارة الى أن يأكلوا الجلود التى تكسو عوارض الصوارى فى سفنهم . وكانت اشارة ماجلان الى أكل الجلود اشـــبه بنبوءة عما حدث بعد ذلك !

وانتهت هذه المناقشة بالدعوة الى استئناف المغامرة . وأذيع من سفينة الى سفينة قرار ماجلان بوجوب مواصلة السير الي الأمام . ولكن ماجلان يأمر الربابنة بأن يخفوا عن البحارة ما آلت اليه حالة التموين ، والا تصدر عن أحدهم اشارة بسيطة الى ذلك ، كيلا يدفع حياته ثمنا لها !

□

تلقى الربابنة فى صمت أوامر ماجلان ، وأصبح فى وسع السفينتين اللتين عهد اليهما بكشف القناة من الجنوب الشرقى ، أن تقلعا ، وبعد قليل كانت السفينتان تختفيان فى منعرجات الخلجان : السفينة « سان انطونيو » بقيادة الفارو دى مسكيتا ، والسفينة «كونسبسيون» بقيادة سراو

أما بحارة السفينتين الباقيتين ، فانهم يمضون الوقت فى راحة. فسفينة القيادة « ترينيداد » والسفينة « فكتوريا » ترسوان الآن عند مصب نهر السردين . وبدل أن يذهب ماجلان نفسه لاستكشاف القناة من ناحية الجنوب الغربى ، فانه عمد الى ارسال زورق يحمل بعض البحارة وكمية من المؤن. وعلى هؤلاء البحارة أن يعودوا بعد ثلاثة ايام ، فيبقى أمامهم يومان للراحة. . اذ أن السفينتين الأخريين لن تعودا الا بعد عودة الزورق بيومين أيضا . وماجلان ورجاله لم يذوقوا مثل هذه الراحة من زمن بعيد. والمناظر التى تحيط بهم تتغير كثيرا فى الايام الاخيرة ، كلما تقدموا نحو الغرب . فقد بدات المروج الخضراء والغابات تحل محل الصخورالجرداء، والهواء يلين . وظهرت عيون مياه عذبة ، طار لها البحارة

فرحا لأنهم لم يذوقوا منذ اسابيع غير مياه البراميل الكريهة
انهم يستلقون بالليل على العشب الاخضر . ويشاهدون الاسماك الطائرة فى حركاتها العجيبة ، أو يلقون عليها شباكهم ليصطادوها . وهم يجدون فى ذلك المكان من المواد الغذائية ، ما يدفعهم الى الأكل من جديد حتى الشبع . والطبيعة حولهم جميلة حتى أن بيجافيتا قد دون فى مذكراته هذه العبارة : « أظن انه لا يوجد فى الدنيا مكان أجمل من هذا المكان » !

ولكن هذه السعادة المتواضعة ، المستمدة من نعمة الراحة والكسل ، لا تعد شيئا بالنسبة الى السعادة التى تملأ الآن نفس ماجلان . فقد عاد الزورق الكشاف بعد ثلاثة أيام . وفى هذه المرة أيضا يشير البحارة بأيديهم كما فعل زملاؤهم يوم عيد القديسين ، بعد أن وجدوا مدخل القناة . غير أن النبأ الذى يحمله بحارة الزورق أهم الف مرة من النبأ السابق : فقد وجدوا فى النهاية مخرج القناة ! نعم ، لقد راوا بأعينهم البحر الذى ينفذ الممر اليه ، بحو الجنوب ، المحيط العظيم المجهول

« تالاسا . . ! تالاسا . . ! » هذه الكلمة ومعناها البحر التى كان قدماء اليونانيين يحييون بها أرض الوطن ، بعد عودتهم من سفر طويل ، ينطلق الآن من الخناجر ولكن بلغة اخرى

ان هذه اللحظة لأعظم لحظة مر بها ماجلان . . لحظة ينعم فيها الانسان بفرح غير محدود لا يذوقه الا مرة واحدة فى حياته . فقد تحقق حلم ماجلان الآن ، وبر بالوعد الذى قطعه للأمبراطور . نعم ، هذا الحلم الذى اكتفى آلاف من

الناس من قبله بمجرد التفكير فيـه ، جعله هو حقيقـة ملموسة : لقد وجد الطريق المؤدية الى البحر الآخر . وهذه الساعة الفريدة في التاريخ تبرر كل ما فعله ماجلان في حياته، التي طبعها بالخلود !

وفجأة ، حدث شيء لم يكن أحد ينتظره من هذا الرجل الحديدي . فقد غلبه التأثر وخنقته العبرات ، وهو الرجل الذي لم يفضح وجهه قط شعوره : أن عينيه تترقرق فيهما الدموع الحارة ، التي تنهمر الآن على خديه وتتخلل لحيتـه الكثيفة .. ان ماجلان يبكي من الفرح !

□

شعر ماجلان خلال لحظة قصيرة من حياته العابسة المفعمة بالجهد ، بأعظم فرح يمكن أن يتاح للانسان المنشيء : الفرح الذي يبعثه تحقيق حلم طالما شقي في سبيله . ولكن القدر قد حكم على هذا الرجل ألا يذوق لحظة من السعادة حتى يدفع ثمنها غاليا . وكل عمل من اعماله الناجحة تصحبه خيبة أمل مؤلمة . فهو يرى السعادة ولكنه لا يمسك بها . وحتى تلك اللحظة التي أشرنا اليها ، لحظة الفرح القصيرة ، أغنى لحظات حياته على الاطلاق ــ هذه اللحظة تنقضي دون أن يمسك بها !

فأين السفينتان الأخريان ؟.. ولماذا تأخرتا في العودة ؟.. الآن وقد وجد الزورق منفذ الممر الى البحر ، فإن كل بحث آخر أصبح لغوا ومضيعة للوقت... آه ..! لتعد السفينتان «سان انطونيو ــ وكونسبسيون» ولتعرفا النبأ السعيد !..

بدا ماجلان يقلق ، ووقف يحدق فى الجهة التى سارت فيها السفينتان . وقد انقضت المدة المحددة للعودة ، ومرت الايام الخمسة ، والسفينتان لم تعودا. فهل وقعت كارثة !.. وهل ضلت السفينتان الطريق ؟.. ان ماجلان لا يقوى على الانتظار أكثر مما انتظر . وها هو يصدر أوامره بالاقلاع للبحث عن السفينتين الغائبتين

ولكن الأفق خال ، لا تبدو فيه اشارة ، ولا يظهر أثر

واخيرا ، فى اليوم التالى ، بدت قلوع سفينة عن بعد ... انها السفينة كونسبسيون التى يقودها سراو الوفى ...
ولكن أين السفينة الثانية ؟ سئل سراو ، فلم يحر جوابا. وكل ما يعرفه أن السفينة « سان أنطونيو » قد سبقته منذ اليوم الاول ، وانه لم يرها بعد ذلك

لم يعتقد ماجلان بادىء الأمر أن هناك حادثا سيئا . فالسفينة « سان أنطونيو » قد تكون تائهة أو لعلها أساءت فهم أوامره . ولهذا ، فانه يرسل سفنه فى جهات مختلفة ، للبحث فى جميع أركان القناة الكبرى . ويأمر باشعال المصابيح ، ورفع حروف كبيرة بجانب الأعلام تستدل بها بها السفينة اذا ضلت الطريق . وبدأ يشعر بأن هناك شيئا خطيرا قد حدث . فاما أن تكون السفينة « سان انطونيو » بالساحل وضاعت بمن فيها ، وهذا لا يستبعد لأن الرياح كانت فى تلك الايام ساكنة أكثر مما يجب . وأما ــ وهذا أقرب الى الاحتمال ــ أن يكون استيفاو غوميز ، المكلف بقيادة سير السفينة « سان أنطونيو » والذى صرح أخيرا بوجوب العودة فى الحال الى اسبانيا ، قد نجح فى فرض وجهة نظره على البحارة ، فانفصل بالسفينة عن القافلة ...

ان ماجلان يجهل ماحدث • ولكنه يدرك شيئا واحدا ، هو أن أكبر سفنه قد اختفت • ولكن أين هي ؟ ففي هـذا التيه الشاسع ، لا يستطيع أحد أن ينبئه اذا كانت السفينة في قرار البحر ، أم فرت سالكة طريقها الى اسـبانيا • فكواكب السماء وحدها قد شهدت ذلك الحادث المجهول • وهي وحدها تعرف الطريق التي سلكتها السفينة « سـان أنطونيو » وهي وحدها قادرة على الاجابة عن سؤاله ••• وهنا ندرك السبب الذي حفز ماجلان الى دعـوة الفلكي المنجم أندرس دي سان مرتان ، الذي حل في القافلة مكان فاليرو ، والذي يحسن وحده استطلاع الغيب في صفحة الفلك • وقد رجاه ماجلان أن يسأل النجوم عن مصـير السفينة « سان أنطونيو » • وصدق علم الفلك مرة أخرى، فان الفلكي الطيب القلب ، الذي يذكر تصرف اسـتيفاو غوميز في المجلس الذي عقده ماجلان من قبل ، يعلن الآن ان السفينة قد فرت ، وان ربانها أسير عليها • وكان هذا مطابقا للواقع

□

وجد ماجلان نفسه مضطرا مـرة أخرى ـ وستكون الاخيرة ـ لأن يتخذ قرارا سريعا • فقد فرح قبل الأوان• وما يحدث له الآن يشبه ما سـوف يحدث فيما بعـد لفرنسيس دراك ، وهذا أيضا من غرائب التشابه بين أول طواف حول الارض ، والطواف الثاني • فقد تخلت احدى سفن فرنسيس دراك عنه في أثناء الليل • وها هـو ذا ماجلان يرى أحد مواطنيه ، ورجلا من دمه ، يلعب من ورائه

لعبة ماكرة ، فى الوقت الذى يقف فيه على عتبة النصر • فان السفينة «سان أنطونيو» تحمل على ظهرها أوفر كمية من المؤن وأجودها ، فضلا عن أن الانتظـــار والبحث قد ضيعا على السفن ستة أيام• واذا كان الانطلاق فى المحيط، قبل ذلك اليوم بأسبوع ، وفى ظروف أكثـــر ملاءمة من هذه ، قد عده ماجلان مغامرة خطيرة ، فان مثل هذا العمل الآن ، بعد فرار السفينة « سان أنطونيو » ، يعد انتحارا لا شك فيه

ومرة أخرى ، انتقل ماجلان من حالة الوثوق الاكيد الى حالة الارتباك الشديد • ولسنا فى حاجة الى شهادةرفيقه باروس ، الذى كتب يقول : « ان ماجلان كان حائرا الى حد لم يعد معه قادرا على اتخاذ أى قرار » ، لكى تدرك مدى القلق الذى استولى على الرجل ، وظهر فى الأمر الــــذى أصدره فورا الى جميع ضباط سفنه ، وهو الامر الوحيد الذى وصل الينا مكتوبا • فللمرة الثانية خلال بضـــعة أيام ، يطلب ماجلان من الضباط أن يفضوا اليه برأيهم : هل يجب مواصلة السفر الى الأمام ، أم العودة الى الوراء ؟ ولكنه فى هذه المرة يأمرهم بأن يردوا على سؤاله كتابة ، لأنه يريد دليلا مكتوبا يثبت به أنه أخذ رأى الربابنـــة • وهو يعلم جيدا ــ وسوف تثبت الحوادث ذلك ــ أن بحارة السنفينة « سان أنطونيو » المتمردين سيوجهون اليهالتهم، كيلا يتهموا فيما بعد بالعصيان • ولا يشك فى انهـــم سيتهمونه بأنه يعمد الى الارهاب ، وانهم سيثيرونالشعور الوطنى فى نفوس الاسبانيين ، بأن يرووا لهم كيف كان ذلكالغريب البرتغالىيقسو عليهم ويضطهدهم،ويكبلبالحديد

موظفي الملك ، ويعدم نبلاء اسبانيين ويمزق جثثهم وينزلهم الى البر على ساحل أجرد ، كل ذلك ليضع السفن فى قبضة البرتغاليين ، خلافا لأوامر الملك . وأراد ماجلان أن ينفى هذه التهمة التي ستوجه اليه حتما بأنه منع ضباطه بقسوة من ابداء رأيهم ، فكتب هذا المحضر العجيب ، الذى يشبه مرافعة دفاع أكثر مما يشبه طلبا موجها الى رفاقه . والمحضر يبدأ بهذه العبارات : « كتب فى قناة جميع القديسين ، تجاه نهر السردين ، فى ٢١ نوفمبر ، عند خط العرض ٢٣ جنوب خط الاستواء : أنا ، فرناندو ماجلان ، الحائز لرتبة فارس من وسام سنتياغو ، والقائد العام لهذه العمارة .. علمت انكم ترون مواصلة السفر قرارا متهورا ، فى هذا الفصل من السنة . ولما كنت رجلا لم يهمل أبدا رأى الآخرين ونصيحتهم ، بل سعى دائما الى المناقشة وتدبير الأمور بالتعاون معكم ... »

ولا بد أن يكون الضباط قد ابتسموا وهم يقرأون هذا الوصف الغريب الذى كتبه ماجلان عن نفسه ، اذ ان ما يميز طبعه على الخصوص هو تحكمه فى الغير . والضباط لم ينسوا بعد كيف انه أسكت كل نقد قبل ذلك التاريخ بتسعة أشهر . وماجلان يدرك ذلك . ولهذا فهو يكتب ما يلى : « ليس لأحد أن يخشى من التعبير عن رأيه .. فان الواجب يقضى عليكم بأن تفصحوا الى بدون خوف عما تعتقدون فيما يتعلق بسلامة السفن . واذا لم تفعلوا ، فانكم تتصرفون خلافا لقسمكم وواجبكم »

اذن، فعلى كل واحد منهم أن يقول اذا كان يجب مواصلة

السفر أو الرجوع الى اسبانيا ، وأن يدون الاسباب كتابة. ولكن الثقة التي فقدت خلال بضعة أشهر ، لا يمكن استعادتها في ساعة واحدة . والخوف الذى لايزال الضباط يشعرون به يمنعهم من ابداء آرائهم بحرية تامة . والرد الوحيد الذى وصل الينا، وهو رد اندرس دى سان مرتان، يدل الى أى حد كان الضباط قليلي الاستعداد لمشاركة ماجلان في المسئولية ، في ساعة أصبحت فيها هذه المسئولية عظيمة هائلة .

أما الفلكي فانه يتكلم بلغة مهنته ، وهى لغة مبهمة ذات معان مزدوجة ، ويلجأ بلباقة تارة الى عبارة « هذا من ناحية » وتارة الى عبارة « هذا من ناحية أخرى ! » وبالرغم من أنه يشك فى امكان الوصول الى جزر ملوك بطريق قناة القديسين هذه ، فانه يرى مواصلة السفر لأنهم أصبحوا « فى قلب الربيع » . ولكن، يجب ألا تبتعد السفن كثيرا ، وأن تعود فى منتصف شهر يناير ، لأن البحارة متعبون . وقد يكون الأوفق أن تسير السفن لا من جهة الغرب ، بل من جهة الشرق . وعلى كل حال ، فليصنع ماجلان ما يراه مناسبا ، وليرشده الله الى الطريق

والمظنون ان الضباط الآخرين قد عبروا عن آرائهم بهذه الطريقة الملتوية

وفى الواقع ، ان ماجلان لم يتوجه الى ضباطه بالسؤال لكى يتلقى منهم الرد ، بل ليتمكن فى المستقبل من القول بأنه استشارهم . وهو يعلم انه تقدم الى حد لم يعد يستطيع معه العودة الى الوراء . فلا يسعه أن يرجع الا

منتصرا ، والا فهو هالك لا محالة . وحتى لو تنبأ له الفلكى المنجم بأنه ذاهب الى الموت ، لوجب عليه أن يواصل السير فى طريقه المجيدة

ففى ٢٢ نوفمبر ١٥٢٠ ، أصدر ماجلان أمره بالاقلاع من مرفأ نهر السردين . وبعد بضعة أيام ، كانت السفن قد اجتازت « مضيق ماجلان » ـ اذ ان هذا هو الاسم الذى سيعرف به فى المستقبل ـ من أوله الى آخره . وعند مخرج المضيق ، وقع نظر ماجلان ، وقلبه يخفق من التأثر خفقانا لا حد له ، على مياه البحر الذى لم تمخر عبابه من قبل سفينة أوروبية ، وهو يمتد خلف نتوء أطلق عليه ماجلان اسم « كابو ديسيادو » ، أى « رأس الشوق »

ويا له من منظر مؤثر !.. ولا بد أن تكون هناك ، الى الغرب ، وراء الأفق اللانهائى ، تلك الجزر المرموقة ، جزر التوابل ، جزر الخيرات ، والصين ، واليابان ، والهند ، وهناك ، الى مسافة بعيدة جدا ، الوطن ، اسبانيا، أوربا !

والآن ، وقفة أخيرة للراحة قبل الانطلاق الحاسم فى المحيط الغامض . وفى ٢٨ نوفمبر ١٥٢٠ ، رفعت المراسى والاعلام . وأطلقت السفن الثلاث مدافعها تحية للبحر المجهول ، أشبه بتحية الخصم العنيد الذى يدعى الى المبارزة حتى الموت !

ماجلان يكتشف مملكة

نوفمبر ١٥٢٠ - ابريل ١٥٢١

ان عبور المحيط المجهول للمرة الأولى عمـــل من أعظم الاعمال التى عرفتهـــا البشرية • وقد وصف مكسيميليان ترنسيلفانوس هذا المحيط فقال : « انه بحر واسع الى حد عسير على عقل الانســان أن يتصوره ! » فقد سبق أن عبر كريستوف كولومب المحيط الاطلنطى ، فعد ذلك فى حينه نصرا لا يحرزه الا ذو شجاعة عظيمة • ومع ذلك ، فان عمل كولومب لا يمكن أن يقاس بالنصر الذى أحرزه ماجلان على عناصر الطبيعة ، مقابل ألوان من الحرمان لا توصف

انالرحلة التىقام بها كريستوفكولومبسنة١٤٩٢، على ثلاثسفنجديدة وافرة المؤن،لم تستغرقأكثر منثلاثةوثلاثين يوما • وقبل أن يبلغ الشاطىء بأسبوع ، دلته الاعشــاب والاخشاب الغريبة التى جرفها البحر ، والطيـور الحائمة حول سفنه ، على أن الارض باتت على مقربة منـــه ، وكان بحارته فى راحة تامة • وأما المؤن ، فكانت متـــوافرة فى سفنه حتى ليستطيع لو أراد أن يعود أدراجه دون أن يصنع شيئا • وكــانت الارض المجهولة أمامه وأرض الوطن خلفه وفى وسعه أن يعود اذا فشل

أما ماجلان ، فانه على عكس ذلك ينطلق فى عالم مجهول تماما • وهو لا يقلع بسفنه من مينــاء أوروبى يعرفه ، بل من بقعة غريبة موحشة ، أى من أرض باتاجونيا • ورجاله منهكون ، فقد قاسوا آلام الجـــوع وأنواعا لا تحصى من الحرمان • وهذه الآلام تواكبهم فى بقية رحلتهم وتهـــدد حياتهم•وثيابهم بالية ، وحبال سفنهم وقلوعها بالية أيضا• وقد مرت أســـابيع وشهور لم يقع نظرهم فيها على وجــه

النسان ، ولم يتناولوا طعاماطازجا،وهم فى سرهم يحسدون رفاقهم الذين فاقوهم جـرأة ، ففروا فى الوقت المنـــاسب عائدين الى أســـبانيا ، بدلا من متابعة الرحـلة وتعريض أنفسهم للهلاك فى ذلك البحر الشاسع

تلك هى الظروف التى سارتفيها السفن الثلاث عشرين يوما ثم ثلاثين ، وأربعين ، وخمسين ، وستين يوما ، دون أن يلمحوا وراء الأفق ظل أرض ، أو يبدو لهم ما يدل على أنهم يقتربون من الساحل

ومضتأسابيع أخرىأيضا ، فصار المجموع ثلاثة أشهر أى أطول من المدة التى عبر فيها كولومب المحيط الاطلنطى ثلاث مرات • وطفقت سفن ماجلان تسير على غير هدى آلاف الساعات بعد ما اختفى فىالافق رأس « كابو ديســـيادو » منذ الثامن والعشرين من شهر نوفمبر • ولم تبق لخرائط ماجلان ومقاييسه أية قيمة • واتضح أن جميع المســافات التى دونها فاليرو خاطئة • وماجلان يعتـــقد انه قد جاوز جزيرة سيبانغو واليابان من زمن بعيد • ومع ذلك فانه لم يعبر بعد غير ثلث المحيط المجهول ، الذى ســماه ، بسبب انقطاع الرياح فيه : « المحيط الهادىء »

ولكن ، ما أثقلهذا السكون ، وما أفظع هذا الهدوء ! • • فان البحـر ما زال على زرقته ولألائه ، والسماء ما برحت صافية محرقة ، والهواء لا يحمل صوتا ولا نأمة ، والأفق ينفسح لهم كلما أوغلوا فيه • ولا يحيط بالسفن الصغيرة الثلاث غير الفضاء الأزرق ، وهى وحـدها النقط المتحركة وسط ذلك الجمود الرهيب

والمؤن تنقص بصورة مخيفة ، والمجاعة تتفاقم يوما بعد يوم • والذى يوزعه الموظف المختص على البحـارة كل يوم ليس طعاما ولكنه أكوام من الاقذار • وقد نفد النبيـذ من زمن ، وهو الذى كان البحارة يرطبون به شفاههم ويبعثون به نشاطهم • والمياه العـــذبة المحفوظة فى « البراميل » ، فارت تحت نار الشمس التى لا ترحم ، فانبعثت منها رائحة كريهة تضطر البحارة المساكين الى سد أنوفهم بأصـابعهم عندما يبللون شفاههم بقطرات منها • أما الخبز المجفف وهو مع السمك أساس غذائهم ، فقد تحول الى مســحوق قاتم قذر اختلط به الدود وأفسده براز الجرذان التى دفعها الجوع الى السطو على البقية الباقية من الزاد • والبحارة يطاردون دائبين تلك الحيوانات الكريهة ، لا ليتخلصوا منها بل ليأكلوها • والصياد الماهر الذى يظفر بفأر فى يده ، يبيعه بنصف دوكا ذهبا ، فيأخذه المشترى السعيد ويلتهمه بشراهة • ويخترع البحارة ألوانا من الاطعمة ليخـدعوا بها أمعاءهم الفارغة : فانهم يخلطون بقايا الخبز المجفف بنشارة الخشب ليضاعفوا حجم الجراية اليومية التافهة • وتفاقمت المجاعة حتى اضطر البحارة الى التهام الجلود التى تكسو عوارض الصـــوارى ، كما تنبأ بذلك ماجلان نفسه

وكتب بيجافيتا يقول : « لقـــد انتهى بنا الأمر ، كيلا نموت من الجوع ، الى التهام قطع الجلد التى تكسو عوارض الصارية الكبيرة لتحمى الحبـال من التمزيق • وقطع الجلد هذه معرضة منذ سنة كاملة للمطر والشمس والريح ، ولهذا أصـــبحت جافة فاضـــطررنا الى وضعها فى الماء لتلين ثم طبخناها على النار وأكلناها ! »

ولا غرابة أن يعجز أولئك البحارة عن احتمال كل ذلك الحرمان • فقد ظهرت عليهم أعراض فساد الدم • وبدأت أسنانهم تقع ، وامتلأت أفواههم بالقروح • وأصبحوا لا يقوون على ازدراد الطعام • ومات كثيرون منهم فى عذاب أليم • وأما الذين لبثوا على قيد الحياة ، فقد أنهك الجوع قواهم ، وهم يتحركون فى السفن متوكئين على عصيهم ، ثم يستلقون قابعين فى زوايا السفن !

مات فى تلك المرحلة تسعة عشر بحارا ، أى عشر مجموع الرجال فى السفن • ومات ذلك العملاق الباتاجونى ، الذى كانوا قد أطلقوا عليه اسم «جوان جيجانتى» أى «العملاق جوان» والذى كانوا من قبل ينظرون اليه باعجاب لانه يلتهم نصف صندوق من الخبز المجفف ، ويشرب جردلا من الماء دفعة واحدة .

وعدد البحارة الأصحاء ينقص كل يوم • وقد كتب بيجافيتا ، وكان صادقا : « ان السفن لم يكن فى وسعها ، وفيها أمثال هؤلاء الرجال ، أن تقاوم أول عاصفة تداهمها ، فلو لم يكن الله والعذراء مريم قد أرادا لنا جوا هادئا ، لقضى الجوع علينا جميعا فى هذا البحر الواسع ! »

تقدمت القافلة خلال الاسابيع والشهور فى فضاء ذلك المحيط اللانهائى ، متحملة أفظع ما يتخيله العقل من آلام حسية زادها شدة وقع على نفوس البحارة ، ألم الخيبة ، خيبة الأمل ! فان بحارة ماجلان كان يخدعهم السراب

كأنهم ضاربون فى الصحراء • فقد صاح البحار المراقب من برجه ذات صباح قائلا انه يلمح البر فى الأفق • واندفع البحارة الى ظهور السفن كالمجانين ، حتى المرضى منهم قد نهضوا من فراشهم وجروا أنفسهم جرا ليروا •••

حقا ، انها جزيرة !

فأنزلت الزوارق فى الحال الى البحر • وراح البحارة يحلمون بالماء العذب الصافى ، والراحة فى ظلال الاشجار ، ويأملون أن يطأوا الأرض اليابسة بأقدامهم !

ولكن ، ما أشد خيبة الأمل !•• فقد اتضح لهم وهم يقتربون من هذه الجزيرة،ومن غيرها فيما بعد ، انها ليست غير أكوام من الصخور الجرداء ، لا يسكنها ولا يمكن أن يسكنها أحد • وقد سميت هذه الجزر : « أسلاس ديزافنتورادس » أى : « جزر التعاسة »

اذن ، فما جدوى النزول هناك ؟ ان ذلك ضياع عقيم للوقت الثمين !

فواصلت القافلة سيرها بكآبة وعناء ، على سطح ذلك القفر الازرق ، الى بعيد ، الى بعيد دائما •••

▭

وأخيرا ، فى ٦ مارس سنة ١٥٢١ ــ أى بعد مرور مائة يوم على خروج السفن من مضيق ماجلان وانطلاقها فىعرض البحر ــ سمع من جديد : «الارض !•• الارض !••» وكان البحارة على آخر رمق • ولو مضى أيضا يومان أو ثلاثة لما وجد الناس فيما بعد أثرا لذلك العمل العظيم ، ولكانت

السفن ، التى تحولت الى مقابر متحركة ، قد اختفت بين العواصف ، أو ارتطمت بالشاطىء وتحطمت !

ان فى هـذه الارض سكانا والحمد لله • وسيجد فيها البحارة ماء يروون به ظمأهم • وما كادت السفن تقترب من خليج على الشاطىء ، حتى أسرعت نحوها زوارق ملونة صغيرة مارقة كالسهام ، ناشرة قلوعها المصنوعة من أوراق النخيل المحبوك•وخرج منها ركابها الزنوج العراة وتسلقوا جوانب السفن خفافا كالقرود • وبدأوا يستولون على كل شىء يقع تحت أيديهم ، جهلا منهم بكل قواعد اللياقة •وما مرت لحظات حتى كانت أشياء كثيرة قد اختفت ، منها زورق السفينة «ترينيداد» الذى قطعت حباله وسرق•ولم يخطر ببال أولئك الزنوج أنهم أقدموا على عمل غير مشروع ، بل كانوا يضحكون لأنهم حصلوا بسهولة على أشياء لم يروا مثلها من قبل • ثم عادوا الى البر بأسلابهم مطمئنين ، فان الاستيلاء على تلك الاشياء يبدو للزنوج أمرا طبيعيا ، كما أن الاسبانيين والبابا والامبراطور رأوا اعلان ملكيتهم للجزر المجهولة بما فيها من سكان وحيوان ، أمرا طبيعيا كذلك !

لكن ماجلان لا يسعه السكوت على تصرفات أولئك المتوحشين ، ولا يمكن أن يترك لهم زورقه ، الذى كلفه فى اشبيلية أربعة آلاف مرافيدى ، والذى له هنا ، على مسافة تقدر بآلاف الاميال ، قيمة لا تقدر لأنه يتعذر ابدال زورق آخر به • ولهذا ، فقد أرسل الى البر فى اليوم التالى أربعين بحارا مسلحين ليعودوا بالزورق ويلقوا على السكان درسا قاسيا•فأضرم البحارة النار فى بعض أكواخ الزنوج ولكنهم

لم يشتبكوا معهم فى قتال. فان أبناء الطبيعة هؤلاء يجهلون فنون القتال، الى حد أنهم كانوا يندهشون لسهام الاسبانيين، التى تنطلق من بعيد فتصيبهم وتسبب لهم ألما شديدا. وقد تولاهم الذعر واليأس ، فجعلوا ينزعون السهام من جراحهم الدامية ويفرون هاربين الى الغابات

والآن ، أصبح فى وسع الاسبانيين أن يحملوا الماء العذب لرفاقهم ، وأن ينصرفوا الى السلب والنهب. فراحوا ينهبون كل ما يجدونه فى الاكواخ التى هجرها أصحابها : الدجاج والخنازير والفاكهة . وبعد أن انتهى الاسبانيون والسكان من النهب على ذلك النحو المتبادل ، أراد الاسبانيون أن يصموا تلك الجزيرة بالعار الأبدى فأسموها « جزيرة اللصوص ! »

ومهما يكن من أمر، فان هذا النهب قد أنقذ الاسبانيين، فبعد أن تمتعوا بالراحة ثلاثة أيام ، تناولوا فيها طعاما طازجا ، وشربوا مياه العيون العذبة ، استعاد معظمهم نشاطه . نعم ان بعض البحارة ماتوا فيما بعد من الانحلال، وبقى بعضهم يعانى آلام المرض والضعف . ولكن أقسى مراحل الشدة قد مرت . والسفن الآن تواصل سفرها نحو الغرب بهمة جديدة

وفى ١٧ مارس ، أى بعد أسبوع آخر ، ظهرت فى الافق جزيرة ثانية ، ثم جزيرة ثالثة ، فأدرك ماجلان أنه ورفاقه قد نجوا . واذا صح تقديره ، فان هذه الجزر هى جزر ملوك التى يبحث عنها . فهو اذن قد بلغ هدفه المنشود

غير أن رغبته الشديدة فى معالجة المرضى من بحارته ،

واعادة النشاط والصحة الى الضعفاء منهم ، لا تدفعه الى اطراح حذره المعتاد . وبدل أن ينزل فى جزيرة «سولوان» وهى أكبر الجزر فانه آثر أن يلقى مراسيه فى الاخرى ، التى سماها بيجافيتا في مذكراته « هومونو » لأنها خالية فهو يرغب فى تجنب الاصطدام بالسكان ، لأن حالة بحارته لا تسمح بذلك . فقبل أى تبادل أو أى قتال ، يجب أن يصبح البحارة قادرين على ذلك

نقل المرضى اذن الى البر ، وقدمت لهم المياه العذبة فشربوا ، وذبح أحد الخنازير التى سرقت من جزيرة اللصوص . وبعد ظهر اليوم التالى ، اقترب زورق قادم من الجزيرة يقل فريقا من الزنوج المسالمين يحملون أثمارا يجهلها بيجافيتا ويخصها بوصف يدل على ما اعتراه من الدهشة حين رآها . وكانت تلك الاثمار الموز والجوز الهندى الذى يحوى جوفه سائلا ينعش المرضى . وفى استطاعة الاسبانيين الآن أن يحصلوا ـ مقابل بضعة أجراس صغيرة وأدوات من الزجاج ـ على حاجتهم من السمك والدجاج ونبيذ البلح والليمون وجميع أنواع الخضر والفاكهة . وللمرة الاولى منذ بضعة أشهر ، يتاح لهم أن يأكلوا ويشبعوا

□

ظن ماجلان بادىء الأمر أنه بلغ الهدف الحقيقى من رحلته ، أى الجزر المعهودة ، الجزر التى تنتج التوابل . ولكنه يدرك الآن ان هذه الجزر التى بلغها ليست جزر ملوك ، لأن عبده هنريك لا يفهم لغة هؤلاء الاقوام . اذن،

فهذه بلا شك مجموعة أخرى من الجزر . واتضح من جديد أن تقدير ماجلان كان خاطئا، لانه سار فى طريق تبعد عشر درجات شمالا عن الطريق الحقيقية . ومرة أخرى يؤدى الخطأ الى اكتشاف جديد . فقد وصل الى مجموعة من الجزر لم يتصور أحد من الاوربيين وجودها ..

انه يبحث عن جزر ملوك ، فاذا به يكتشف جزر فيليبين (١) ، ويضيف الى أملاك الامبراطور شارلكان أرضا جديدة ، ستحتفظ بها اسبانيا أطول مما احتفظت بالبلدان التى اكتشفها كريستوف كولومب وكورتيز وبيزارو

وقد أنشأ ماجلان فى الوقت ذاته أمبراطورية لنفسه ! فان العقد الذى يحمله ينص على أن له ولفاليرو ، الحق فى جزيرتين ، اذا زاد عدد الجزر المكتشفة على ست . وهكذا، خلال أربع وعشرين ساعة ، أصبح الرجل الذى كان بالامس مغامرا فقيرا يشرف على الهاوية ، حاكما على أرض هى ملكه الخاص عدا الفوائد الاخرى التى تجعله من أعظم أهل الارض ثراء

ما أعجب هذا الانقلاب الفجائى فى عجلة الحظ ، بعد تلك الشهور الكئيبة المضنية !.. ان الثقة بالنصر تعيد الى المرضى نشاطهم وعافيتهم بقدر ما يعيدهما الغذاء الوافر

---

(١) جزر « فيليبين » مجموعة من جزر الملايو ، فى بحر الصين . استعمرتها أسبانيا منذ سنة ١٥٢٧ . وثار سكانها فى سنة ١٨٩٦ واستنجدوا بالولايات المتحدة الامريكية فأنجدتهم ونشبت الحرب الاسبانية الامريكية التى انتهت بتنازل أسبانيا عن جزر الفيليبين للولايات المتحدة فى سنة ١٨٩٨ . وفى سنة ١٩٤٦ أعلنت أمريكا استقلال الفيليبين . وقد أطلق عليها اسم « فيليبين » تكريما لفيليب ابن شارلكان

الطازج الصحى ، الذى يحمله الآن كل يوم سكان جزيرة سولوان •• وبعد تسعة أيام من الراحة التامة ، على ذلك الساحل الدافىء ، استعاد معظم البحارة صحتهم ، وجعل ماجلان يتأهب لاستكشاف جزيرة كبيرة واقعة بالقرب من جزيرة ماساوا • ولكن حادثا مزعجا أوشك أن يعكر عليه فرحه فى اللحظة الاخيرة • فان صديقه بيجافيتا كان ذات يوم منهمكا فى اصطياد السمك بصنارته ، فسقط فى البحر دون أن ينتبه اليه أحد • ولما كان مؤرخ هذه الرحلة الأولى حول الارض لايجيد السباحة ، فقد أوشك أن يغرق لو لم يتمكن فى النهاية من الامساك بأحد الحبال • وسمع البحارة صراخه ، فأسرعوا الى انتشال المؤرخ الجليل الشأن ورفعوه الى ظهر السفينة !

وفى هذه المرة ، نشر البحارة قلوعهم والفرح يملأ قلوبهم • فالجميع يعلمون الآن أنهم وصلوا الى أطراف المحيط الشاسع ، وانهم خرجوا من ذلك الفضاء الموحش المميت • ولم يبق أمامهم غير ساعات معدودة ، أو أيام قلائل يقضونها فى البحر •• فها هم يرون سواحل جزر جديدة الى اليمين والى اليسار • وبعد أربعة أيام ، أى فى اليوم الثامن والعشرين من شهر مارس ، ألقت السفن مراسيها أمام ماساوا ، قبل أن تقفز قفزتها الاخيرة نحو الهدف النهائى الذى تتوق اليه !

□

وفى ماساوا ، تلك الجزيرة الصغيرة من جزر فيليبين ،

التى لا ترى على الخريطة الا بالمنظار المكبر ، مرت بماجلان أيضا لحظة أخرى من لحظات حياته الرائعة • فما كادت السفن تقترب ناشرة قلوعها حتى تجمع السكان فرحين متسائلين ، فى انتظار نزول الأغراب الوافدين • ولكن ماجلان أرسل عبده هنريك ، على سبيل الاحتياط ، كوسيط بينه وبين القوم ، على اعتبار أنهم سيثقون برجل من جلدتهم أكثر مما يثقون بجماعة من البيض الملتحين ، المرتدين ثيابا غريبة ، والمدججين بالسلاح

وحدثت المعجزة فعلا !•• فقد أحاط السكان بهنريك ، وهم نصف عراة ، يصيحون ويشيرون بأيديهم • وفجأة ، جمد العبد فى مكانه فقد طرقت أذنيه بضع كلمات من لغتهم • وفهم ما يقولونه له ، وما يطلبون منه • ان هذا الرجل الذي انتزع من وطنه منذ أعوام ، يسمع الآن كلمات من لغة قومه • وانها لساعة لا تنسى ! فللمرة الاولى فى التاريخ ، يعود رجل الى المكان الذى فارقه ، بعد أن يكون قد طاف حول العالم ! وماذا يهم أن يكون ذلك الرجل عبدا وضيعا ؟ فالعظمة ليست كامنة فى الشخص بل فى المصير الذى تريده له الاقدار • وهذا العبد الذى لانعرف عنه غير الاسم الذى أطلقه عليه ماجلان بعد تنصيره : « هنريك » • هذا الرجل الذى انتزع من جزيرته ، وسيق الى أوربا ، فبلغ لشبونة مارا بالهند وأفريقية ، ثم عاد مارا بالبرازيل وباتاجونيا ، الى البقعة التى يتكلم فيها الناس لغة قومه ، ذلك الرجل هو أول رجل عاش على هذه الارض ، وتم له الطواف حولها !

بعد رحلة موفقة استغرقت ثلاثة أيام ، وصلت السفن

في هذه الساعة ، أدرك ماجلان أنه بلغ هدفه حقـا • فقد عاد من جهـة الشرق الى منطقة جـزر الملايو ، التى غادرها قبل ذلك اليوم باثنتى عشرة سنة ، مبتعدا عنهـا الى الغرب • وعما قليل ، سيصل الى ملقة ، حيث اشترى عبده ، وحيث يعود به سـالما • وسواء بلغ الجزر الموعودة غدا أو فيما بعد ، وسواء كان هو الذى سيبلغها وغيره ، فان هذا لا يهمه بعد الآن ، فالمهم قد تم وتحقـق • وقد أثبت ماجلان أن السير في جهة واحدة ، سواء كان ذلك من مشرق الشمس أو مغربها ، لا بد أن يفضى الى المكان الذى بدأ منه • وما كان العلماء يتكهنون به منذ آلاف السنين ، قد أصبح الآن ، بفضل جلد رجل واحد ، حقيقة أكيدة : ان الارض مستديرة ، وها هو ماجلان قد أثبت ذلك بصورة عملية

□

انها لأيام بديعة رائعة مفعمة بالسـعادة ، تلك التى قضاها البحارة فى ماساوا ! •• ولكن حسبك الآن راحة يا ماجلان !•• فرجالك قد استعادوا صحتهم ، فلماذا اذن تطيل الانتظار ؟ وما الفائدة من اكتشاف جزيرة صـغيرة أخرى ، ما دمت قد وفقت الى أعظم اكتشاف فى عصرك ؟ فالى جزر التوابل اذن حتى تكون قد أديت رسالتك كاملة• وبعد ذلك ، عد الى بلادك حيث تنتظرك زوجتـك ، لتقدم لك الابن الثانى الذى وضعته بعد رحيلك •• عد الى بلادك لتبدد ترهات العصاة الذين جبنوا وتخلوا عنك ، ولتعلـن

على الملأ أى عمل عظيم قد تم بفضل شجاعة نبيل برتغالى، وجلد بحارة اسبانيين واخلاصهم .. لا تدع أصدقاءك ينتظرون أكثر مما انتظروا . ولا تترك الذين وثقوا بك عرضة للشك أكثر مما تركتهم.. عد الى اسبانيا ياماجلان!

غير أن الشعور بالواجب فى نظره أقوى من الرغبة فى العودة الى اسبانيا منتصرا ، وتقبل شكر الامبراطور . وكل ما صنعه ذلك الرجل حتى الآن قد بدأه بدقة ، وواصله حتى النهاية بدقة . وفى هذه المرة أيضا ، لا يريد ماجلان أن يرحل عن جزر فيليبين قبل أن يكون قد استكشفها من أقصاها الى أقصاها ، ووطد فيها سلطة اسبانيا . ولما كان عدد الرجال الذين معه لا يسمح بترك فريق منهم فى هذه الجزر الجديدة ، كمندوبين ووكلاء ، فانه يريد أن يعقد معاهدات مع أقوى زعماء الجزر ، كتلك المعاهدة التى عقدها مع الملك كلامبو ، ويرفع على جميع جزر فيلبين العلم الاسبانى !

وأجابه الملك كلامبو الى طلبه ، فدله على أكبر جزر فيلبيين، وهى جزيرة « سيبو » ، ولما رجاه ماجلان أن يسمح له بنوتى من رعيته يصحبه الى تلك الجزيرة ، تمنى الملك بكل تواضع أن يكون له شرف الذهاب بنفسه لخدمته !..

وأقلعت السفن عن ذلك الساحل المبارك الذى أنقذها من الشقاء . وراحت تزحف على صفحة الماء الهادئة ، بين تلك المجموعة من الجزر ، فى محاذاة الشاطىء ، والسكان يلوحون بأيديهم للبحارة مرحبين

النصر النهائى

٧ ابريل ١٥٢١ - ٢٧ ابريل ١٥٢١

وبعد رحلة موفقة استغرقت ثلاثة أيام وصلت السفن أمام جزيرة سيبو ، في السابع من شهر ابريل سنة ١٥٢١ • وبدت قراها للانظار دالة على أنها آهلة بالكثير من السكان • وقاد الملك كلامبو «الدليل» سفن القافلة نحو عاصمة الجزيرة • وأدرك ماجلان من أول نظرة ألقاها عليها أن سيد تلك الجزيرة لابد أن يكون أميرا جليل المقام ، لان الميناء كان مزدحما بعدد كبير من المراكب الغريبة والقوارب الخاصة بالسكان • فعليه اذن أن يبدو في مظهر لائق • ولهذا ، فقد أصدر أمره الى السفن باطلاق المدافع تحية للجزيرة ، فاستولى الذعر على السكان وفروا صارخين هاربين الى كل جهة •

ولكن ماجلان أوفد في الحال الى البر ترجمانه الأمين هنريك ، لينبيء الملك أن ليس في هذا أى مظهر من مظاهر العداء ، بل بالعكس ، فان قائد الاسطول يقصد بهذا « الرعد » أن يعبر عن احترامه للملك سيبو العظيم ، وهذا القائد نفسه ، الذى يتكلم العبد باسمه ، ليس الا خادما لأعظم عاهل في العالم • وقد صدع بأمر ذلك العاهل، فعبر المحيط الهائل قاصدا جزر التوابل • ولكنه علم في ماساوا أن ملكا حكيما مسالما يجلس على العرش في سيبو ، فأراد أن يحييه في طريقه • وان قائد السفن التى تطلق الرعود لعلى استعداد لأن يعرض على ملك هذه الجزيرة بضائع ثمينة ، لم ير أحد مثلها بعد ، وأن يدخل معه في معاملات تجارية • ثم انه لا ينوى الاقامة طويلا في الجزيرة ، بل سيرحل من دون أن يلحق به أقل ضرر ، بعد أن يعقد معه معاهدة صداقة •

غير أن الملك ، أو على الأصح الراجا «هومابون» ، ليس ساذجا كسكان جزيرة اللصوص أو عمالقة باتاجونيا • فهو يعرف النقود وقيمتها ، ولهـذا فقد أنشأ فى بلاده نظام رسم الدخول يتقاضاه من كل سفينة تلقى مراسيها فى مينائه • وأثبت هذا الملك انه من رجال الاقتصاد ، سواء أكان ذلك من وحي نفسه أم بارشاد غيره • ولم تؤثر فيه رعود المدافع ولا كلمات الترجمان المعسولة ، بل قال لهنريك انه لا يمنع سيده من دخول الميناء ، ويرضي بارتياح أن ينشيء علاقات تجارية معه اجابة لطلبه ، ولكن يجب عليه قبل كل شيء أن يدفع رسم الدخول • واذا كان الربان الغريب العظيم يريد الانصراف الى التجارة هنا ، فيجب عليه أن يحترم أولا العادات المرعية

وبديهى أن لا يرضى ماجلان أبدا ــ وهو قائد عمارة ملكية ، يحمل وسام سنتياغو برتبة فارس ــ أن يدفع رسما لهذا الملك الصغير في جزيرته • واذا فعل هذا ،فانه يعترف ضمنا باستقلال بلد تعده اسبانيا منذ الآن ، وبموجب المرسوم البابوى ، ملكا لها • وهنريك نفسه يفهم هذا • ولهذا ألح على الراجا بأن يتغاضى في هذه الحالة الخاصة عن المطالبة بالرسم ، وأن لا يثير العداء بينه وبين سيد البروق والرعود • ولكن الراجا رد قائلا انه يأسف لانه لا يستطيع تغيير العادات المرعية : فالنقود أولا ، ثم الصداقة بعدها • ولا بد من الدفع كما يفعل الآخرون • واثباتا لذلك ، أرسل الملك فى طلب تاجر مغربى مستشهدا به ، فان هذا التاجر قادم فى مركب من بلاد سيام ، وقد دفع الرسم بلا احتجاج

وما أن أقبل التاجر حتى علا وجهه الشحوب • فقد أدرك الحقيقة من أول نظرة ألقاها على السفن الكبيرة ، التى رسمت على قلوعها المنشورة شارة صليب سنتياغو • فانها حقا لكارثة ، أن يكون أولئك الغربيون قد اكتشفوا هذا الركن الخفى من الشرق ، حيث يمارس التجار أعمالهم بدون أن يضايقهم أولئك الاغراب !•• انهم اذن هنا ، بمدافعهم وسهامهم ••• هؤلاء اللصوص ، هؤلاء القتلة ! •• لقد انتهى عهد الاعمال السلمية ، وانتهى عهد الربح الهادىء !

تقدم التاجر من الملك وهمس فى أذنه أن يكون على حذر وأن لا يثير الخصام بينه وبين الضيوف المزعجين •• فهؤلاء أنفسهم هم الذين نهبوا كاليكوت والهند وملقة واحتلوها ـ وهنا يخلط التاجر بين الاسبانيين والبرتغاليين ـ وليس فى وسع أحد أن يقاوم هؤلاء الشياطين البيض

وكان لتحذير التاجر المغربى وقع شديد فى نفس ملك سيبو • فقد تهيب الرجل الموقف وتنازل عن الرسم المفروض • وللدلالة على نواياه الحسنة ، دعا رسل ماجلان الى مأدبة فخمة • ولمس الغزاة الفاتحون دليلا جديدا على انهم أصبحوا على مقربة من الهدف الاخير : فان الطعام لم يقدم لهم فى أطباق من قشر الشجر أو الخشب ، بل فى أوان من الصينى ، جىء بها مباشرة من الصين ـ التى سماها الرحالة مركوبولو (١) فى كتابه : « كاتهاى »

---

(١) ماركوبولو : رحالة ايطالى • عبر القارة الاسيوية كلها وعاد بطريق جزر الملايو • وروى رحلته فى كتاب سماه : « كتاب ماركوبولو » • يحوى كثيرا من المعلومات القيمة عن الشرق فى ذلك العهد • وقد ولد ماركوبولو فى سنة ١٢٥١ ومات فى سنة ١٣٢٣ •

وأعلن ملك سيبو استعداده لعقد معاهدة تحالف أبدية مع الامبراطور العظيم شارلكان • وقد احتـــرم ماجلان نصوص هذه المعاهدة بدقة تامة • فان هذا المكتشف أرق شعورا من سواه ، وأبعد نظرا منهـــم ، ولا يرمى الا الى الفتح السلمى ، بخلاف كورتيز وبيـــزارو ، اللذين كانا يطلقان جنودهما القساة، ليذبحوا الشعوب ، ويستعبدوها بلا شفقة وفى أقصى سرعة

نعم ، ان طباعه جافة ، وهو يفـــرض فى سفنه نظاما حديديا ، وقد أثبتت تصرفه تجاه العصاة انه لا يعـــرف الشفقة ولا يقف فى معاقبة المذنبين عند حد • ولكن يجب أن نعترف بأن هذا الرجل القاسى لم يكن سفاكا للدماء • ولا يمكن أن تلصق به أية جريمة كتلك الجرائم الوحشية التى تلطخ الى الابد ذكرى كورتيز وبيزارو • ولا يمكن أن يؤخذ عليه انه حنث مرة واحدة بالعهد ، كما فعل أولئك الفاتحون ، اعتقادا منهم أن ذلك مسموح به لهم تجـــاه « الوثنيين »

وفى أثناء التبادل التجارى ، استرعى انتبـــاه سكان الجزيرة بنوع خاص منظر الحديد ، ذلك المعدن القاسى ، الذى تصنع منه السيوف والرماح والفؤوس • وأصـــبح الذهب ذلك المعدن الرقيق الاصفر ، أقل قيمة من الحديد فى نظرهم ، ولذلك فهم يبذلون خمس عشرة ليبـــرة من الذهب ، مقابل أربع عشرة ليبرة من الحديد • ولقى ماجلان صعوبة عظيمة فى منع رجاله من التنازل عن ثيابهم وكل ما يملكون نظير الذهب الذى يدفعه أهل الجزيرة لكيلا يدرك السكان قيمة هذا المعدن الحقيقية ، وعندئذ قد يرفعـــون

سعره • وماجلان يريد الاحتفاظ بالفائدة التى يجنيهـــا من جهلهم قيمة الذهب ، كما أنه يسهر بيقظة على الموازين التى يزنه بها أهل الجزيرة والملاحون

ولم يحدث فى التاريخ ان تم تحقيق مشروع رائع كمشروع ماجلان ، وكلل بالنجاح فى النهاية بمثل هذه الروعة •• وقد أصبحت جميع أحلامه الآن حقائق ملموسة ••• فقد وجد الممر المؤدى الى طرفى العالم ، وضم الى التاج الاسبانى جزرا جديدة ذات ثروة عظيمة •• وحمل كثيرين من سكان الجزر على ترك عبادة الاوثان •• بدون أن يسفك قطرة من الدم • فقد وضع ثقته بالله ، فأخذ الله بيده وأنقـــذه من أخطار لم يتعرض رجل لمثلها • ومنذ هـــذا اليوم ، جعل ماجلان يشعر بأنه فى مأمن من كل فشل • فأى عمل يمكن أن يخيفه فى المستقبل ، بعد تلك الصـــعاب التى تغلب عليها ؟ ومن يستطيع ، بعد هذا النصر المبين ، أن يعرض عمله للفشل !

كلا ، لم يعد فى الدنيا شىء يعجز عن الحصول عليه !••

وهذا الاعتقاد هو الذى أدى الى هلاكه !

□

لقد كسب ماجلان أمبراطورية جديدة للتاج الاسبانى • ولكن ، كيف السبيل الى المحافظة على هذه الامبراطورية ؟ انه لا يستطيع البقاء أكثر من هذه المدة في جزيرة سيبو• ولا يستطيع أن يخضع الجزر الأخرى واحدة بعد واحدة • فهو اذن لا يرى غير وسيلة واحدة لتثبيت سلطة اسبانيا

فى جزر فيليبين بصورة دائمة ، وهى أن يجعل من الملك هومابون ملكا على جميع الجزر وأمرائها وزعمائهـــا • فان صفته كحليف لملك اسبانيا يجب أن ترفعه الى مقام فوق مقام الزعماء الوطنيين الآخرين • واذا كان ماجــلان قد عرض على هومابون مساعدته العسكرية ضد من يجرؤ على الوقوف فى وجهه كائنا من كان ، فانه لم يفعــل ذلك عن تهور أو تسرع ، بل عن حكمة ودهاء

وشاءت المصادفات أن تسنح فى ذلك الوقت فرصـــة مناسبة • فقد كان فى جزيرة صغيرة تدعى «ماكتان» واقعة تجاه جزيرة سيبو ، راجا يدعى « سيلابولابو » ، رفض دائما أن يعترف بسلطة ملك سيبو ، وكرر الرفض أيضـا فى هذه المرة ، وأبى أن يعمل باشارته ، ومنع أصـــحاب الجزر الاخرى من امداد ضيوف الملك هومابون بالمـــواد الغذائية • والحقيقة أن هذا العداء الذى أبداه سيلابولابو نحو الاسبانيين كان له ما يبرره ، فقد اندفع بحارة ماجلان وراء النساء ، بعد أن لبثوا طويلا لا يرون امرأة • ونشبت ذات يوم مشادة بينهموبين سكان الجزيرة الصغيرة الخاضعة لسيلابولابو ، فأضرم البحارة النار فى بعض الاكواخ ••

لكن امتناع سيلابولابو عن امدادهم بالمواد الغـــذائية كان ، فى نظر ماجلان ، فرصـــة مواتية ، لكى يثبت لملك سيبو ولجميـــع الملوك الآخرين أية فوائد يجنيها الذين ينضمون للاسبانيين ، وأى أخطـــار يتعرض لها الـــذين يقاومونهم • فان سلوكه حيالهذا العصيان سيكون وسيلة للاقناع أقوى من جميع الخطب ••

لذلك عرض ماجلان على هومابون أن يلقى على خصمه درسا صغيرا ، لكى يدين له بالطاعة ، ولكن ملك سيبو لا يقابل هذا الاقتراح بالرضا وقد يكون ذلك بسبب ما يخشاه من ثورة القبائل عليه بعد رحيل الاسبانيين • وتدخل سراو وبربوسا فحذرا أمير البحر عواقب هذه الحملة التى لا تدعو اليها ضرورة

غير أن ماجلان لا يفكر فى خوض معركة حقيقية •وانما يرمى الى تثبيت سلطة الملك حليف اسبانيا على الزعماء المجاورين • فاذا خضع الزعيم المتمرد ، فهذا خير له وللجميع • وماجلان يكره سفك الدم بغير مبرر • ولهذا فقد أوفد عبده هنريك والتاجر المغربى الى سيلابولابو ليعرضا عليه الصلح • ولا يطلب منه غير شىء واحد : أن يعترف بتبعيته لملك سيبو ، وبسلطة اسبانيا • فاذا قبل هذا، فان الاسبانيين يعيشون معه فى أمان ووفاق ! واذا رفض ، فسوف يرى كيف تمزق رماحهم الاجسام !

وأجاب الراجا ان لدى رجاله أيضا رماحا • نعم ان هذه الرماح مصنوعة من القصب والخيزران ، ولكن أسنتها قد عولجت بالنار فتصلبت ، وسوف تتاح للاسبانيين الفرصة ليتثبتوا من ذلك • وأمام هذا الرد الوقح ، لم يبق أمام ماجلان غير استعمال القوة

□

وضع ملك سيبو تحت تصرفه ألف مقاتل ، وفى وسعه من ناحيته أن يجمع مائة وخمسين رجلا•فاذا نزل على رأس

هذه القوة فى جزيرة ماكتان الصغيرة ، فلا شك أنه سيهزم الراجا المتمرد هزيمة ساحقة ٠

لقد أثبت منذ أيام لملك ماساوا ولملك سيبو ، أن فى امكان عشرين رجلا أن يهجموا بالرماح والخناجر على رجل مدرع دون أن يصيبوه بجرح واحد وهو اليوم يريد أن يكرر تلك المناورة على مرأى من الجميع لتأديب ذلك الزعيم العنيد٠ومن أجل ذلك لم يصطحب ماجلان غير ستين رجلا ، وطلب من ملك سيبو أن لا ينزل الى البر فهو ورجاله يجب أن لا يشتركوا فى القتال بل يلبثوا بعيدا ليروا كيف يؤدب بضع عشرات من الاسبانيين جميع الزعماء والملوك فى هذه الجزر !

فهل أخطأ ماجلان الحساب والتقدير ، وهو الذى كان حتى هذه الساعة يحسب ويقدر بكل دقة ؟ كلا ٠٠٠ فان هذه النسبة ـ نسبة ستين اسبانيا يلبسون الدروع ضد ألف رجل من العراة المسلحين برماح الخيرزان ـ لم تكن نسبة غير معقولة ٠ فقد فتح كورينز وبيزارو ، على رأس أربعمائة أو خمسمائة رجل، ممالك بأسرها ، وهزموا مئات الآلاف من سكان المكسيك وبيرو ٠ ولم تكن حملة ماجلان هذه اذا قيست بما صادف كورينز وبيزارو من صعوبات غير نزهة عسكرية بسيطة ٠ ومما يثبت أن ماجلان لم يكن يظن أن هناك خطرا عليه ، أنه فى ذلك اليوم لم يأمر باقامة الصلاة كعادته قبل الاقدام على عمل ذى أهمية تذكر

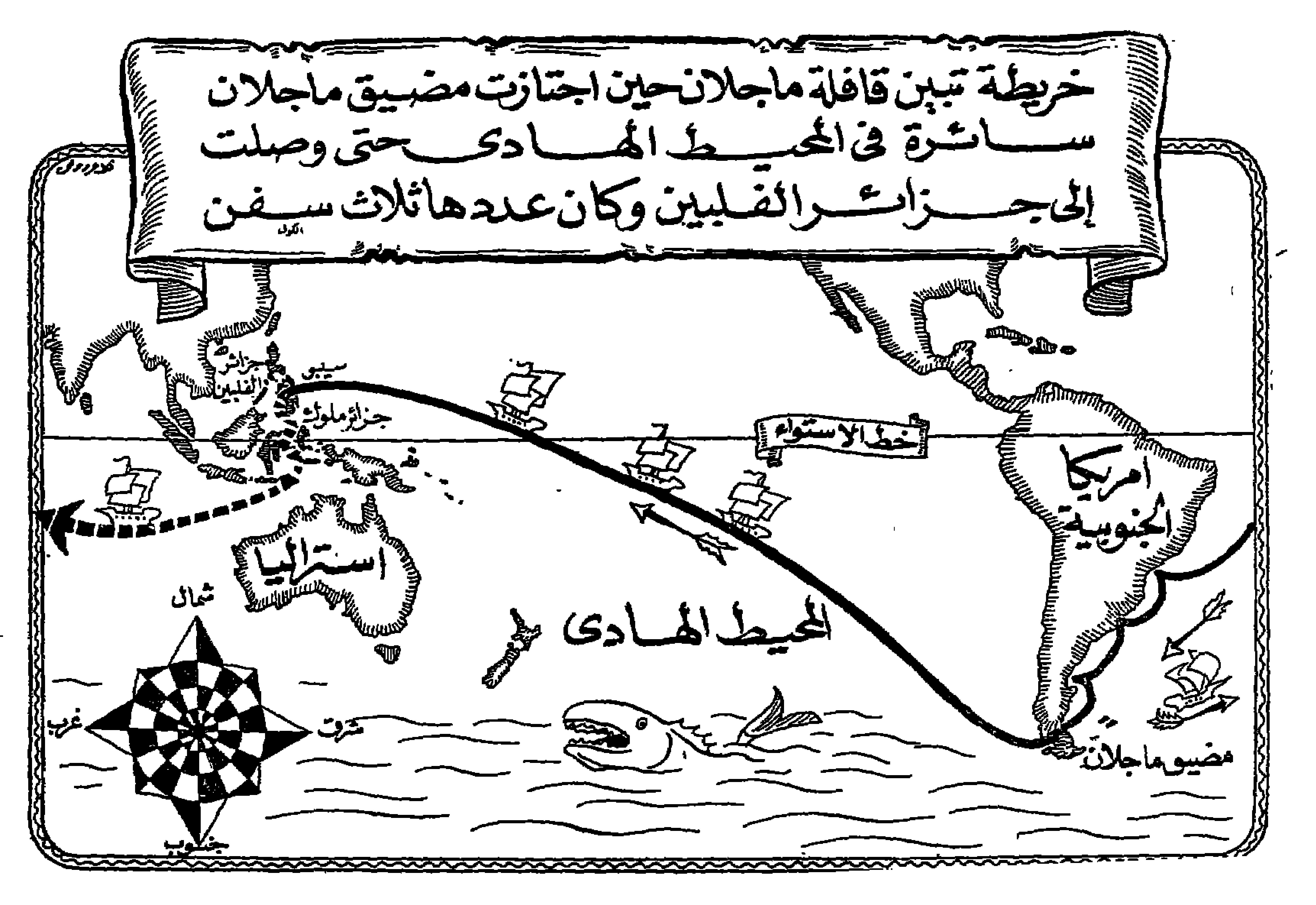
وفى ليلة ٢٦ أبريل سنة ١٥٢١ ، ركب ماجلان البحر

ومعه ستون رجلا لعبور المضيق الصغير الفاصل بين الجزيرتين • وقد ادعى السكان أنهم رأوا فى تلك الليلة طيرا غريبا يشبه الغراب على سطح أحد الاكواخ، وفجأة، وبدون أن يدرك أحد السبب، جعلت جميع الكلاب تنبح • ولم يكن الاسبانيون أقل اعتقادا بالخرافات من السكان، فتولاهم الخوف

ولكن ، هل تجعل هذه الظواهر رجلا من طينة ماجلان يتردد فى مناوشة زعيم صغير من زعماء القبائل ؟

نزل أربعون بحارا مدرعين ، الى الماء يقودهم ماجلان الذى كتب عنه بيجافيتا فى هذه المناسبة يقول « انه كان مثل الراعى الذى أبى أن يترك قطيعه » • وبقى العشرون الآخرون فى زوارقهم ، وتقدم البحارة نحو الشاطىء ، وكانت المياه تغمرهم الى صدورهم ، واذا بهم يرون سكان الجزيرة فى انتظارهم صائحين ملوحين بتروسهم • وبعد قليل اشتبك الفريقان فى قتال

ولابد أن يكون الوصف الذى كتبه بيجافيتا عن ذلك الحادث أقرب الى الحقيقة ، مما ورد فى الوثائق الاخرى التى وصلت الينا • فقد أصيب بيجافيتا بسهم جرحه جرحا خطرا، وظل يقاتل حتى آخر لحظة الى جانب رئيسه المحبوب • وهذا ما يقوله : « قفزنا الى الماء فغمرنا حتى الصدور • واضطررنا الى التقدم نحو الشاطىء مسافة تبلغ مرمى السهم مرتين • أما زوارقنا ، فقد تعذر عليها أن تلحق بنا بسبب كثرة الصخور • وعلى الساحل ، وجدنا ألفا وخمسمائة من السكان ، تفرقوا ثلاث فرق فاندفعوا نحونا وهم يرسلون صيحات مرعبة • وهاجمتنا فرقتان من الجانبين ، والفرقة


خريطة تبين قافلة ماجلان حين اجتازت مضيق ماجلان
سائرة فى المحيط الهادى حتى وصلت
إلى جزائر الفلبين وكان عددها ثلاث سفن
أمريكا الجنوبية
خط الاستواء
المحيط الهادى
استراليا
جزائر الفلبين
سيبو
جزائر ملوك
مضيق ماجلان
شمال
جنوب
شرق
غرب

الثالثة من الامام • فقسم رئيسنا البحارة قسمين • وأطلق زملاؤنا من الزوارق نيران بنادقهم مدة نصف ساعة ، ولكن بدون فائدة ، لأن القذائف المنطلقة من تلك المسافة كانت لا تخترق التروس ولا تحدث غير جراح خفيفة

« ولما رأى القائد هذا ، صاح بهم أن يتوقفوا عن اطلاق النار حرصا على الذخيرة • ولكن البحارة لم يعملوا باشارته • وعندما أدرك السكان أن قذائفنا لا تلحق بهم ضررا ، توقفوا عن التقهقر • وراحوا يرسلون صيحاتهم المتزايدة ، ويقفزون يمينا ويسارا لاجتناب قذائفنا ، ثم اقتربوا منا شيئا فشيئا وهم يحمون أنفسهم بتروسهم ، وأمطرونا بوابل من السهام ، بحيث أصبحنا غير قادرين على الدفاع عن أنفسنا بسهولة

« وأراد القائد أن يخيفهم فأرسل بضعة رجال أضرموا النار فى أكواخهم • ولكن هذا ضاعف هياجهم • فأسرع كثير منهم ناحية النار التى كانت قد التهمت عشرين أو ثلاثين كوخا ، وقتلوا اثنين من رجالنا • ووثب علينا الآخرون وقد تزايد غضبهم • ولما فطنوا الى أن الدروع تحمى الجزء الأعلى من أجسامنا دون الجزء الاسفل ، راحوا يتخذون أرجلنا هدفا لسهامهم • وأصيب القائد بسهم سام فى قدمه ، فأصدر أمره بالارتداد خطوة خطوة • ولكن رجالنا ولوا الادبار هاربين بسرعة ، بحيث لم يبق معه غير سبعة أو ثمانية منا • وكانت سهام الاعداء تنهال علينا من من كل جانب ، ونحن عاجزون عن المقاومة • ولم يكن فى وسع قاذفات القنابل فى الزوارق انجادنا لأن ضحولة المياه لم تكن تسمح للزوارق بالاقتراب من الشاطىء

« وهكذا واصلنا الارتداد شيئا فشيئا ونحن نقاتل بلا وهن ، ودخلنا فى الماء فغمرنا الى الركب ، وأصبحنا على مرمى السهم من الشاطىء . ولكن السكان ظلوا يطاردوننا ويلتقطون السهام التى رشقونا بها من قبل ويستعملونها خمس مرات أو ستا ، وعرفوا القائد فصوبوا اليه سهامهم وتمكنوا مرتين من اسقاط الخوذة عن رأسه . ولكنه ظل مع بعض البحارة ثابتا فى مكانه كما يفعل الفارس الشهم . وهكذا واصلنا القتال أكثر من نصف ساعة أخرى ، حتى أصيب القائد بسهم فى وجهه . وفى ثورة غضبه ، وثب على الرجل الذى رشقه بالسهم فطعنه بالرمح فى صدره ، ولكن الرمح ظل عالقا فى جسم القتيل . وحاول القائد حينئذ أن يستل سيفه من غمده ، ولكنه لم يستطع ، لأن سهما آخر أصاب يده اليمنى فشل حركتها . ولما رأى الأعداء ذلك ، تكاثروا عليه وضربه أحدهم بسيفه فأصابه بجرح خطر فى فخذه الأيسر ، فسقط على وجهه . ووثب عليه أهل الجزيرة ، ومزقوا جسمه بالرماح . وهكذا قتلوا مرآتنا ، ونبراسنا ، وعزاءنا ، ورئيسنا الأمين ! »

◻

على هذا النحو هلك أعظم ملاح فى جميع عصور التاريخ، وهو يقاتل فى مناوشة حمقاء مع جماعة من سكان الجزر المتوحشين . وذهب العبقرى الذى أخضع عناصر الطبيعة ، وتغلب على العواصف ، وذلل جميع العقبات ، قتله ملك صغير حقير من ملوك القبائل !

ولكن ، ماذا يهم مصيره الشخصي ، ما دام قد انتصروأدى رسالته ؟ غير أنه من سخريات القدر أن تعقب مأساة موته مهزلة سمجة. فان أولئك الاسبانيين ، الذين كانوا بالأمس يحتقرون ذلك الزعيم الفيليبينى الصغير ، يذلون أنفسهم اليوم ، الى حد أنهم لا يسرعون الى احضار النجدة ، لانتزاع جثة قائدتهم من قاتليه ، بل يوفدون الوسطاء الى سيلابولابو للتوسل اليه بأن يعيد اليهم الجثة مقابل كميـة من القطع الزجاجية والمناديل الملونة ! ولكن الراجا يرفض طلبهـم باباء ، فان جثة عدوه ليست للبيع . وهـو يحتفظ بها كغنيمة من غنائم النصر . وجميع الناس يعرفون الآن ، فى الجزر جميعها ، ان سيلابولابو العظيم قتل سيد البـرق والرعد ، وان قتله كان هينا كقتل عصفور !

ولا يعلم أحد ماذا حل بجثة ماجلان . وهكذا اختفى ، بصورة غامضة، الرجل الذى انتزع من المحيط سره الغامض !

العودة بلا قائد

ابريل ١٥٢١ - سبتمبر ١٥٢١

فقد الاسبانيون ثمانية من رجالهم فى هذا الحـــادث المحزن ، ولم يكن ذلك فى ذاته خطرا ، ولكن الكارثة كانت وفاة قائدهم ، فقد اختفت منذ لقى مصرعه الهـــالة التى كانت تجعل البيض فى نظر سكان الجزر أشبه بالآلهة

وقد كان هذا الاعتقاد يرعب الهنـــود الحمر ويشـــل حركاتهم • وحسبك شاهدا على أثر ذلك الاعتقاد فيهم ، هذا الحادث الذى وقع لأحد الغزاة الاسبانيين ، فقد غرق في النهر ، فظل الهنود الحمر جامدين حول الجثة ثلاثةأيام، يخشون أن يلمسوها ، خوفا من أن يصحوا الاله الابيض من سباته • ولم تعد اليهم شجاعتهم الا بعد أن تطـرق الانحلال الى جثته ، فاستعدوا للمقاومة

فاذا ثبت أن واحدا من أولئك الآلهة البيض ـ يمكن قهره ، واذا انهزم مرة واحدة أولئك الذين لم يغلبوا قط، فان العصا الســـحرية تنكسر ، وخرافة الرجـــال الذين لا يقهرون تتبخر !

وهذا ما حدث فى هذه المرة ، فان ملك سيبو كان قد خضع للاسبانيين بلا قيد ولا شرط • ورضى طائعا باعتناق دينهم ، اعتقادا منه أن الاله الذى يعبدونه لا بد أن يكون أقوى من الاصـــنام الخشبية التى كان الرجل وقـــومه يعبدونها • واعتقد أنه اذا عقد محالفة صداقة مع أولئك الرجال الذين هم فوق البشر ، فسوف يصـــبح فى الحال أوسع ملوك الجزر سلطانا • وها هو الآن يرى ، وها هم رجاله يرون، كيف غلب سيلابولابو، ذلك الزعيم الصغير، رئيس هؤلاء الآلهة البيض ! وها هو يرى بعينيه برقهـــم

ورعدهم لا يحدثان ضررا فى هذه المرة ، بل انه ليرى أولئك المقاتلين الذين قيل انهم لا يغلبون ، يفرون خائفين أمام رجال سيلابولابو ، ويتركون قائدهم بين أيدى أعدائه

ولربما كان فى وسع الاسبانيين أن ينقذوا سمعتهم لو عمدوا الى خطة حازمة فاحتشد بحارة السفن جميعا واستردوا جثة قائدهم وألقوا درسا قاسيا على ملك الجزيرة الصغير وقومه . ولكن شيئا من هذا لم يحدث

ثم ان الاسبانيين قد صنعوا كل ما يمكن أن يصنعوه للقضاء على حسن التفاهم الذى كان قائما بينهم وبين سكان الجزر . وقد سأل بيير مرتير بحارة السفن بعد عودتهم عن السبب الذى جعل السكان ينقلبون على الاسبانيين بعد موت ماجلان ، فتلقى من أحد شهود العيان، البحار مرتان، وهو من أبناء جنوى ، ردا معقولا ، مؤداه أن مسألة النساء كانت سبب ذلك الانقلاب . فان ماجلان نفسه ، بالرغم من حزمه، لم يتمكن من منع بحارته ، بعد أن لبثوا محرومين من النساء عدة شهور ، أن يعتدوا على نساء القوم الذين أخافوهم . فقد حاول عبثا أن يضع حدا لاعمال العنف التى كانوا يقترفونها وعاقب بربوسا نفسه ، وهو أخو زوجته، لأنه قضى ثلاث ليال متتابعة على البر ...

والمظنون أن هذه الاباحية قد تزايدت بعد موت ماجلان . والشىء الوحيد الأكيد، هو أن كل احترام نحو الاسبانيين قد زال بزوال قوتهم العسكرية الموهومة

ويغلب على الظن أن الاسبانيين أنفسهم قد أدركوا هذا الانقلاب ، اذ أنهم أصبحوا فجأة راغبين رغبة ملحة فى

الرحيل . فلتنقل اذن الى السفن جميع السلع التى لم يتم بيعها ، ولتقلع السفن الى جزر التـــوابل ! .. فان فكرة ماجلان التى كانت ترمى الى اكتســـاب صـــداقة الجزر للامبراطور ، بالطرق السلمية ، هذه الفكرة لم تعد تشغل بال خلفائه . ولكن الاسبانيين فى حاجة الى هنريك لانجاز معاملاتهم الاخيرة ، فهو وحده يجيد لغة البلاد ويمكن أن يكون وسيطا بينهم وبين السكان . وهنـــا ، فى هـــذه المناسبة ، يتجلى الفارق بين ماجلان وخلفائه فى فن معاملة الناس . فان هنريك الوفى قد ظل ملازما لسيده فى أثناء المعركة الى النهاية . وقد نقل جريحا الى سفينة القيادة ، وهو الآن نائم هنا ، بلا حراك ، ملفوفا فى حصـــير ، أما بسبب الجرح الذى أصـــابه ، واما لانه يبكى ســـيده ، كالحيوان الأمين . وها هو ذا دوارتى بربوسا ، الـــذى اختاره البحارة بعد موت ماجلان قائدا للعمارة بالاشتراك مع سراو ، يقترف خطأ شائنا باساءته الى خادم الفقيـــد الوفى اساءة مؤلمة . فقد قال له بلهجة غليظة ، انه لاينبغى له أن يعتقد ان موت سيده يتيح له فرصة للبطـــالة ، أو يظن أنه لم يعد عبدا رقيقا !.. فبعد العودة الى اسبانيا ، سوف يسلمونه لزوجة ماجلان . واذا لم ينهض فـــورا ، ويهبط معهم الى البر كوسيط ، فانهم سوف يذيقونه طعم السياط !..

أما هنريك ، الذى ينتمى الى أقوام من الملايو لا يغفرون الاهانة ، فانه يتلقى التهديد بتحـــويل بصره الى ناحية أخرى ، واثقا من أن ماجلان أعتقه فى وصيته من العبودية ابتداء من ساعة موته ، وانه علاوة على ذلك قد خصه ببعض

المال . ولهذا ، فانه يكظم غيظه وهو يفكر فى الانتقام

لقد خضع للأمر الـذى تلقاه من بربوسا ، وذهب الى السوق ، وتوسط بين البحارة والسكان . ولكنه استعان بمعرفته لغة البـلاد ، لينبه ملك سيبو الى أن الاسبانيين قد اتخذوا جميع التدابير لنقل البضائع التى لم يتيسر لهم بيعها الى السفن ، وانهم سيقلعون بعد أن يتم لهم ذلك . واذا تصرف الملك ببراعة ، فانه يسهل عليه الاستيلاء على تلك البضائع دون أن يدفع مقابلها شيئا ، بل يسهل عليه أيضا الاستيلاء على السفن الثلاث .

ويظهر ان هنريك ، باقتراحه هذا ، كان معبـرا عن أفكار الملك نفسه . وعلى كل حال ، فان كلماته لقيت قبولا حسنا . واشترك الرجلان فى تدبير خطة لم يظهر منهـا شىء فى بادىء الأمر . فان تبادل السلع يجـرى وديا ، والملك يبالغ فى التودد الى البحارة ، اخوانه فى الدين . ويبدو ان هنريك نفسه ، منذ أن لوح له بربوسا بالسياط، قد زايله كسله المزعوم . وفى اليوم الثالث بعـد مصرع ماجلان ، أى فى أول مايو ، حمل العبد الى الربابنة رسالة مفرحة ، وقد انبسطت أساريره . فان ملك سيبو قد تلقى فى النهاية مجموعة من الحـلى والجـواهر التى يرغب فى ارسالها الى سيده وصديقه ملك اسبانيا . وأراد أن يقيم حفلة فخمة لتسليم تلك الحلى والجواهر فدعا اليها جميـع الزعماء وجميع مرءوسيه . وهو يرجو أيضا من الربانين بربوسـا وسراو أن يذهبا الى الحفلة مع ضباطهما وخيرة رجالهما، ليتسلموا الهدية التي يريد ارسالها الى ملك اسبانيا

ووقع سراو وبربوسا فى الشرك الذى نصب لهما ، فقد قبلا الدعوة مطمئنين ، وثبت مرة أخرى أن الذين يقرأون فى صفحة الفلك طالع غيرهم لا يجيدون قراءة طالعهم • فان الفلكى المنجم اندريس دى سان مرتان ،الذى نسى بلا شك أن يقرأ طالعه فى ذلك اليوم ، قد انضم الى الربانين ، فى حين أن بيجافيتا الذى يدفعه عادة حب الاستطلاع ، قد اضطره جرحه الى البقاء فى فراشه ، فنجا من الموت !

وكان عدد الاسبانيين الذين نزلوا الى البر تسعة وعشرين ، بينهم خيرة رجال السفن من الربابنة والبحارة الذين يديرون حركات السفن ويقودونها • فاستقبلهم الملك استقبالا حافلا ، ودعاهم الى حديقة تحفل بالنخيل ، أعد لهم فيها مأدبة فاخرة • واجتمع حول « الأغراب » عدد كبير من السكان ، تظاهروا بأنهم جاءوا للفرجة ، وراحوا يلاطفون المدعوين ملاطفة عجيبة • غير أن الحاح الملك فى دعوة ضيوفه الى الحديقة أثار الشكوك فى نفس جوان كرفالو ، فأفضى بها همسا الى غوميز دى اسبينوزا، مدرب البحارة على حمل السلاح ، وقرر الرجلان أن يذهبا فى الحال الى السفن ويعودا ببقية رجالها لينقذوا رفاقهم اذا حاول السكان الغدر بهم

فاعتذر الرجلان بمهارة ، وابتعدا ، وركبا زورقا ، وانطلقا مسرعين نحو السفن • وما كادا يصلان اليها ، حتى تصاعدت من البر صيحات استغاثة • فقد تكرر ماحدث بالأمس فى ملقة ، ووثب السكان على الاسبانيين فذبحوهم

غرة قبل أن يضعوا أيديهم على أسلحتهم · وهكذا ، بضربة واحدة ، تخلص ملك سيبو الغادر من ضيوفه ، واستولى على البضائع التى أنزلت الى البر ، وعلى أسلحة الاسبانيين

وشل الذعر والدهشة حركة البحارة الباقين على ظهر السفن، ثم تقدم كرفالو، الذى بلغ بعد مقتل الربابنة رتبة القائد العام دفعة واحدة ، وأصدر أمره بالاقتراب من الساحل وتوجيه فوهات المدافع كلها الى المدينة · وأطلقت البطاريات قنابلها الواحدة بعد الاخرى · ولعل كرفالو كان يأمل أن ينقذ بتوقيع هذه العقوبة ، حياة بعض رفاقه· ولعل ذلك لم يكن غير ثورة غضب فجائية · ولكن ، فى الساعة التى تساقطت فيها القنابل الاولى على الاكواخ ، كان جوان سراو أحد الاسبانيين الذين نزلوا الى البر ، قد أفلت من أعدائه كما أفلت من قبل فرانشيسكو سراو من أعدائه أيضا ، وأسرع هاربا الى الشاطىء · ولكن أعداءه يلحقون به ، ويقبضون عليه ، ويكبلونه بالقيود · وهو الآن هناك ، أعزل ، يحيط به فريق من المتوحشين ، يصرخ بكل قواه طالبا من رفاقه أن يوقفوا اطلاق النار ، حتى لا يذبحه أعداؤه انتقاما ، ويناشدهم باسم السماء أن يرسلوا زورقا ببعض السلع لافتدائه وفك أساره

وحددت قيمة الفدية باثنتين من قاذفات القنابل وبضعة أطنان من النحاس · ولكن السكان يلحون أن تنقل هذه الاشياء الى البر · وكرفالو يخشى أن يستولى أولئك الملاعين، الذين خانوا العهد ، على البضائع والزورق أيضا

ولعل كرفالو كان يخشى ، اذا دفع الفدية وأنقذ سراو،

أن يخسر قيادة السفن التى آلت اليه ، ويعود كما كان بحارا مكلفا بمقود سفينته · ومهما تكن الدوافع ، فان كرفالو لم يرسل الفدية المتفق عليها

وجعل جوان سراو ، يرجو ، ويأمل ، ويصيح وقد تولاه يأس المشرف على الموت ··· ولكنه رأى السفن تخرج من المرفأ ، فاستجمع ما تبقى من قواه ، وقذف كرفالو ، من فوق الأمواج ، بلعنة هائلة : ان الله سيحاسب كرفالو على هذه الخيانة البشعة حسابا عسيرا يوم الدين !

تلك كانت كلماته الاخيرة · وقد شاهد الاسبانيون مقتل قائدهم ، قبل أن يقلعوا نهائيا عن الساحل ···

وابتعد الاسبانيون هاربين ، كأنهم مجرمون تطاردهم العدالة ، عن الجزيرة التى قوبلوا فيها كالآلهة بقيادة ماجلان ، بعد أن جلبوا على أنفسهم العار · وظلت لعنة قائدهم المقتول تطن فى آذانهم ، ووراءهم مشهد السكان وهم يرقصون من الفرح

□

انه لاستعراض للحوادث كئيب ، ذلك الاستعراض الذى ينصرف اليه الآن أولئك الهاربون بعد خروجهم من المرفأ المشئوم · فان الاقامة فى جزيرة سيبو كانت أقسى ضريبة منيت بها السفن ، بين جميع الضربات التى حلت بها منذ سفرها من اشبيلية

لقد مات ماجلان ، القائد الذى لا يعوض ، وتبعه أفضل ربابنة السفن : دوارتى بربوسا وجوان سراو · وكان فى

وسعهما أن يقدما خدمات جليلة فى أثناء العودة ، لمعرفتهما التامة سواحل الهند الشرقية • وبموت أندريس دى سان مرتان ، فقدت السفن رجلا خبيرا فى مراقبة الفلك لتنظيم سيرها • وبهرب هنريك فقدت ترجمانها • ولم يبــق من البحارة ، الذين كان عددهم مائتين وخمسة وستين رجلا عندما أبحرت السفن من اشبيلية ، غير مائة وخمسة عشر رجلا ، أى ما يكفى على أكثــر تقدير لضمان سير سفينتين فى البحر ، فلا بد والحالة هذه من التضحية باحدى السفن الثلاث • ووقعت القرعة على السفينة « كونسبسيون »التى حدثت فيها ثقوب تتسرب منها المياه من كل ناحية • ونفذ حكم الاعدام بالسفينة بالقرب من جزيرة «بوهول» ، فنقل منها الى السفينتين الاخريين كل ما يمكن الاستفادة منه ، حتى آخر مسمار وأصغر حبل فيها • ونظر البحارة بأعين حزينة الى النار تلتهم السفينة التى ظلت سنتين بيتا لهم ووطنا ، والتى تغوص الآن فى أليم الجشع وسحب الدخان الكثيف تتصاعد منها

وهكذا لم يبق من العمارة غير ســـفينتين فقط ، هما : «ترينيداد» التى كانت ترفع علم القيادة لماجلان ،والسفينة الأخرى الصغيرة « فكتوريا »

□

وسارت السفينتان فى طريقهما بصورة تدل على الارتباك، تنحرفان تارة الى اليمين وتارة الى اليســـار ، بين جـــزر السوند ، فيشبه سيرهما سير العميان • وهما لا تذهبان

مباشرة الى الجنوب الغربى نحو جزر ملوك بعد ما أصبحتا على مقربة منها، بل تتجهان ـ لسبب مجهول ـ الى الشمال الغربى ، فى سيرهما الملتوى • وهكذا ضاع شهران فى طواف غير منتظم،أدى بالسفينتين الى ميناء مندناو بجزيرة بورنيو

وبدت مظاهر فقدان القيادة الرشـــيدة فى اضطراب النظام والتقاليد فى السفينتين • فعندما كانت القيادة فى يد ماجلان ، لم تحدث أعمال نهب فى البر ، ولا أعمـــال قرصنة فى البحر • فكل شيء كان خاضعا لنظام دقيق ، وكانت حسابات القافلة تقيـــد بدقة • ولم ينس ماجلان لحظة واحدة أنه ، بوصفه أمير البحار لاسطول شارلكان ، يجب عليه أن يحافظ على سـمعة العلم الاسبانى فى أقصى البلدان • أما خلفه كرفالو ، الذى لم يرتفع الى القيادة الا لأن رؤساءه قد هلكوا ، فانه يجهل تماما هذه الاعتبارات • وهو يمارس بلا خجل أعمال القرصنة ، ويستولى على كل ما تقع عليه يده • فجميع المراكب التى تلتقى بها السفينتان تهاجم وتنهب • والاموال التى يحصل عليها كرفالو لافتداء من يأسرهم رجاله تدخل جيبه الخاص • وقد أهمـــل فى السفينتين مسك دفاتر الحسابات ، لأن كرفالو هو الذى يحاسب وهو الذى يحتفظ بالمال

ولم يسمح ماجلان ، رغبة منه فى المحافظة على النظام، بصعود أية امرأة الى ظهر السفن • أما كرفالو فقـــد جاء بثلاث نساء سباهن من أحد المراكب المنهوبة ، محتجا بأنه يريد اهداءهن لملكة اسبانيا

ولكن البحارة أتعبهم فى النهاية سلوك القائد الجديد ، وكتب دلكانو يقول انهم أدركوا أن كرفالو لا يعمل لمصلحة الملك بل لمصلحته • فاتفقت كلمة البحارة على نزع القيادة منه ، وأحلوا مكانه لجنة ثلاثية ، مؤلفة من غوميـز دى اسبينوزا ، ربان السفينة « ترينيداد » وجـوان دلكانو ، ربان السفينة « فكتوريا » وبونسيرو البحار المكلف بدفة القيادة ، والذى كانوا يسمونه « حاكم العمارة »

وعلى الرغم من هذا الانقلاب واصلت السفن سـيرها المضطرب ، لولا أن مصادفة سعيدة أعادت السفينتين الى الطريق القويمة • فقد هاجمت السفينتان ذات يوم مركبا فى الطريق ونهبه البحارة وأسروا فيه رجلا من جزيرة ترنات، احدى جزر التوابل • وكان الرجل بطبيعة الحال يعـرف الطريق الى تلك الجزر ، بل انه كان يعـرف فرانشيسكو سراو ، صديق ماجلان !

اذن ، ففى وسع رجال السفينتين أن يتجهوا الآن مباشرة الى هدفهم ، الذى داروا حوله أكثر من مرة فى الاسـابيع الهوجاء السابقة دون أن يدركوه • وفى بضـعة أيام ، تقدموا الى الهدف أكثر مما تقدموا اليه فى سـتة أشهر قضوها فى بحث جنونى لا طائل تحتـه ، وتم تقدمهـم بلا عناء • وفي ٦ نوفمبر ، بدت لهم فى الافق جبـال ترنات وتيدور •• لقد وصلوا أخيرا الى الجزر المباركة

وكتب بيجافيتا : « ان الدليل الذى يرافقنا يقـول ان هذه الجزر هى جزر ملوك • فشكرنا الله جميعا ، وأطلقنا المدافع اظهـارا لفرحنا • ولا يعجبن أحد لهذا الفرح ، اذ

اننا قضينا سبعة وعشرين شهرا الا يومين نبحث عن هذه الجزر ! »

وفي ٨ نوفمبر ، وصلت السفن الى تيدور ، احدى جزر ملوك الخمس ، التى حلم بها ماجلان طول حياته • وما ألقت السفن مراسيها ، حتى أسرع الملك « المنصور » الذى كان سراو من أصدقائه ، تحت مظلة من الحرير ، ورحب بالضيوف ترحيبا أخويا ، قائلا لهم : « تعالوا وافرحوا • فقد طفتم طويلا بالبحار ، ولقيتم ما لقيتم من أخطار ، فتمتعوا الآن بالراحة ولا تفكروا فى شىء ، واعتبروا انكم هنا فى أمبراطورية سيدكم ! »

واعترف الملك عن طيبة خاطر بسيادة ملك اسبانيا ، وبدل أن يفعل ما فعله الزعماء الآخرون من قبل ، ويأخذ من هؤلاء الاجانب أقصى ما يستطيع ، فقد رجاهم أن لا يقدموا اليه كثيرا من الهدايا لأنه لا يملك شيئا جديرا بأن يقدمه اليهم نظير هداياهم »

انها لجزر مباركة حقا ! وكل ما يريده الاسبانيون يحصلون منه على كميات وافرة : التوابل الثمينة ، والمواد الغذائية ، وتراب الذهب ، وما لا يستطيع الملك تقديمه اليهم ، يأتى به من الجزر القريبة • وبعد ما لقيه البحارة من صنوف الحرمان والآلام ، شعروا بأنهم انتقلوا الى نعيم السعادة • وبلغوا حد الهوس والجنون ، فجعلوا يبتاعون كل ما يستطيعون من التوابل والطيور النادرة ، ويعطون مقابل ذلك بنادقهم ومعاطفهم وأحزمتهم • فما الفائدة من الاحتفاظ بذلك كله ؟ أليسوا على أهبة العودة الى الوطن ؟

نعم ان فريقا منهم يؤثرون البقاء فى هذا النعيم • ولهذا ، فان كثيرا من البحارة قابلوا بفرح ظاهر النبأ الذى عرفوه فجأة قبيـــل الرحيـــل ، وهو ان سفينة واحدة تستطيع السفر • أما الثانية ، فلابد من ترميمها، وسيبقى خمسون منهم فى تلك الجزيرة ريثما يتم هذا العمل

والسفينة التى كتب لها البقاء هى ســـفينة القيـــادة « ترينيداد » وهى أول سفينة أقلعت من مرفأ سان لوكاد، وأول سفينة دخلت المضيق ، وأول ســـفينة انطلقت فى المحيط المجهول ، سائرة دائما الى الامام ، وقد تجسمت فيها ارادة قائدها • أما الآن وقد غاب القائد، فان السفينة قد نفد جلدها ، ولم تعد قادرة على السير الى أبعد من هنا• وهى الآن أشبه بالكلب الأمين ، الذى يأبى أن يغادر قبر سيده • وقد وقفت عند الهدف الذى وضعه ماجلان نصب عينيه

فبعد أن نقلت الى ظهر السفينة « ترينيـــداد » المؤن وشحنة التوابل،ورفع عليها علم القديس جاك وقد سطرت عليه هذه العبارة : « هذه شارة عودتنا السعيدة ! » وبعد أن نشرت القلوع ، اذا بالسفينة القديمة التى نخر السوس حوافيها تهتز فجأة وتتفكك أخشابها •••

واندفعت المياه الى جوف السفينة دون أن يدرك أحد من أين تندفع • فلا بد اذن من الاسراع فى اعادة ما تراكم فيها الى البر ، والا فانها هالكة بما فيها • وســـيستغرق اصلاحها بضعة أسابيع •••

غير أن السفينة الباقية لا يسعها أن تنتظر • فقد آن

لها أن تؤوب الى الوطن ، وتحيط الامبـــراطور علما بأن ماجلان قد بر بوعده ، وضحى بحياته ليحقـق ، فى ظل العلم الاسبانى ، أعظم عمـل فى تاريخ الملاحة • وتقـرر بالاجماع أن تحاول السفينة « ترينيداد » بعد اصلاحها ، عبور المحيط الهادىء من جديد ، لتصل الى بنـــاما ، فى أملاك اسبانيا وراء البحار • أما السفينة «فكتوريا» فانها فى أثناء ذلك ستحاول الافادة من هبوب الرياح الملائمة ، وتعود الى الوطن من الغرب ، بطريق المحيط الهندى

ووقف قائدا السفينتين وجها لوجه يتبادلان تحية الوداع، بعد أن لبثا يتعاونان فى العمل المشترك سنتين ونصفا

□

كان الوداع مؤثرا !•• فان سبعة وأربعين من الضباط والبحارة ، سيستأنفون السفر عائدين الى الوطن بالسفينة « فكتوريا » بينما يبقى واحد وخمسون من الرجال منتظرين فى جزيرة تيدور ريثما يتم اصلاح السفينة « ترينيداد » وقد ظل هؤلاء مع رفاقهم على ظهر السفينة المســـافرة ، ليتبادلوا معهم القبلات ، ويحملوهم التوصيات والرسائل الى ذويهم، حتى أزفت ساعة الرحيل • فان العمل المشترك، مدة سنتين ونصف ، قد جعل من هذا الخليط المؤلف من رجال ينتمون الى جميع القوميات والاجناس كتـلة واحدة متماسكة • ولن يفرق بينهم بعد الآن خلاف أو انقسام • ولما رفعت السفينة « فكتوريا » مراسيها ، تمنى الباقون أن لا يفترقوا عن الذاهبين • ثم ركبـوا الزوارق وجعلوا

يطوفون حول جوانب السفينة ليحيوا للمرة الاخيرة رفاقهم قبل الفراق النهائى

ولم تعد الزوارق الا بعد أن أقبل الليل وتعبت الايدى، فأطلقت السفينة المسافرة مدافعها لتحية الاخوان المتخلفين على الشاطىء • وبدأت السفينة « فكتوريا » رحلتها التاريخية

□

ان الرحلة حول نصف الكرة الارضية ، التى قامت بها هذه السفينة المنهكة البالية ، بعد ثلاثين شهرا قضتها بلا انقطاع فوق البحار، لعمل جدير بأن يدون بين الانتصارات البحرية فى التاريخ • فان سباستيان دلكانو ، بانجاز المشروع الذى اضطلع به قائده الراحل ، قد كفر تكفيرا مجيدا عن الخطأ الذى ارتكبه من قبل • ويبدو لاول وهلة أن المهمة التى ألقيت على عاتقه ليست من الصعوبة بمكان • فان السفن البرتغالية ، منذ أوائل ذلك القرن ، تغادر بانتظام جزر الهند الشرقية ، مستعينة بالرياح الدورية فى المحيط الهندى ، قادمة من البرتغال أو آيبة اليه • فالسفر الى الهند ، الذى كان قبل ذلك الوقت بعشر سنوات ، فى عهد ألبوكرك وألميدا ، يعد مغامرة فى بحار مجهولة ، لم يعد يتطلب الآن غير معرفة الطريق ، التى تنتشر على طولها المحطات • وفى كل محطة تقف السفن ، فى الهند وأفريقا ، وملقة وموزمبيق والرأس الاخضر حيث توجد مراكز تجارية بها موظفون برتغاليون • ويسهل على السفن أن تحصل فى تلك المحطات على حاجتها من كل شىء ،

ففيها مواد غذائية وافرة ، وبحارة أدلاء مدربون لقيــادة السفن عند الحاجة

لكن الصعوبة الهائلة التي يجب على دلكانو أن يتغلب عليها ، لا تنحصر في اضطراره الى عدم الاستعانة بتلك المحطات فقط، بل توجب السير بعيدا عن الطريق المألوفة. فقد علم دلكانو ورفاقه في تيدور ، من فم لاجيء برتغالى ، ان الملك مانويلو قد أصدر أمره بالاستيلاء على سفن ماجلان والقبض على بحارتها بوصفهم من القراصنة . وهـذا في الواقع هو المصير القاسي الذي سيلاقيه رفاقهم بالسفينة « ترينيداد »

اذن ، فعلى دلكانو أن يعبر المحيط الهندى ، ويدور حول رأس الرجاء الصالح ، ويصعد في محاذاة الســواحل الافريقية ، دون أن ينزل الى البر مرة واحدة ، بسـفينة شراعية مجهدة ، ينخرها السوس ، وتثقلها حمولتها

☐

في الثالث عشر من شهر فبراير ســنة ١٥٢٢ ــ وهو تاريخ يجب تسجيله ــ بدأت القفزة التي لا مثيل لها ، من جزيرة تيمور الى اشبيلية !.. فقد وضع دلكانو في السفينة مزيدا من المواد الغذائية والمياه العذبة ، وأعاد النظر في كل ركن منها فأصلح ورمم ، مقتديا في ذلك برئيسه الراحل ، قبل أن يقذف بها لبضعة أشهر في أحضان الرياح والأمواج

وفي خلال الايام الأولى ، سارت السفينة أمام سواحل جزر جديدة ولمح رجالها من بعيد غابات المناطق الدافئة ، والجبال البارزة فوق الأفق . ولكن الشـتاء يسرع ، ولا

يسمح للسفينة أن تقف فى مرفأ تتزود منه أو تأوى اليه • ويجب الاستعانة بالريح الغربية • ولهـذا السبب ، مرت السفينة « فكتوريا » دون أن تلقى مراسيها أمام تلك الجزر الجذابة ، مما أثار الحزن فى نفس بيجافيتا النهم ، الذى لم يكفه بعد كل ما وقعت عليه عيناه من « أشـــياء مدهشة » وكان دلكانو قد أخذ معه تسعة عشر رجلا من أبناء الجزر ، أما البحارة الاوربيـون فى السفينة فكان عددهم سـبعة وأربعين فجعـــل بيجافيتا يقطع الوقت مستمعا الى أولئك « الوطنيين » يقصون عليـه أغرب الخرافات عن الجزر التى تمر أمامها السفينة • فهنا ، فى هذه الجزيرة ، يعيش رجال لا يزيد ارتفاع قامتهم عن خمسة وعشرين سنتيمترا ، ولكن آذانهم طويلة تبلغ الارض • وفى الليل ، ينام الواحد منهم على احدى أذنيه ويغطى نفسه بالاخرى • وهناك ، فى تلك الجزيرة ، لا يوجد غير النســاء • ولا يســـمح للرجال بأن يدخلوها • ولكن أولئك النساء يحبلن بفعل الرياح • واذا ولدن ذكورا قتلنهم لأنهن لا يحتفظن الا بالاناث !

غير أن الجزر الاخيرة تختفي الواحـدة بعد الاخرى ، فى جو تلك الاقاصيص الخرافية التي يقصها أولئك الرواة على بيجافيتا الطيب القلب • ولا يبقى الآن حول السفينة غير المحيط الهندى من طرفه الى طرفه ، لا يرى رجالها غير الماء والسماء وكلاهما حزين كئيب •••

□

وفجأة ، ظهر من جوف السفينة ذلك الشبح الذى يعرفه

البحارة ، الشبح الباهت ، ذو العينين الغائرتين ، شبح المجاعة !٠٠ أنه ينتصب الآن بينهم فجأة ، ويحدق فيهم ساخرا !٠٠

فما الذى حدث ؟ !

كارثة غير منتظرة ، تفسد جميع التقديرات التى حسب لها دلكانو حسابا ٠ فقد شحنوا فى السفينة من المواد الغذائية وخاصة اللحوم ما يكفى خمسة أشهر ٠ ولكنهم لم يجدوا فى جزيرة تيمور ما يلزم من الملح ٠ وأثرت شمس المحيط الهندى المحرقة فى اللحوم، ففسدت واضطر البحارة الى القاء جميع المخزون منها فى البحر،ليقوا أنوفهم رائحتها الكريهة الخانقة ٠ ولم يبق عندهم الآن غير الارز طعاما ، الأرز والماء ، ثم الماء والأرز ، وكل يوم تنقص جراية الأرز وتنقص جراية الماء ، عدا أن الماء أيضا أصبح ملحا !٠٠

وأصيب البحارة من جديد بفساد الدم ، وعاد الموت يحصدهم ٠٠٠ وفى أوائل شهر مايو ، ساءت الحال حتى جهر فريق من البحارة بأنه خير لهم أن يتجهوا تلقاء ساحل موزمبيق ، ويسلموا السفينة للبرتغاليين ، من أن يموتوا فى عرض البحر جوعا

غير أن ارادة ماجلانالحديدية قد انتقلت الى العاصىالقديم دلكانو ، بانتقال القيادة اليه ٠ فان هذا الرجل نفسه ، الذى كان بالأمس يريد ارغام أمير البحر على العودة الى أسبانيا يطلب الآن من رجاله أنيتذرعوا بشجاعتهمكاملة ، وينجح فى فرض رأيه عليهم وسيكون فى وسعه أن يقول فى المستقبل للامبراطور : « قررنا انه خير لنا أن نموت من أن نقع فى أيدى البرتغاليين ! »

وجازف البحارة ذات يوم مجازفة جريئة فنزلوا على ساحل أفريقيا الشرقية ، ولكن دون جدوى . فانهم لم يجدوا ماء ولا ثمرا فى تلك البقعة الجرداء ، واضطروا الى استئناف رحلتهم الرهيبة ، ولا عاصم لهم من شقاء الجوع والظمأ فى التيه الزاخر !

ووصلوا الى رأس الرجاء الصالح ــ وسموه غير عامدين باسمه السابق : « كابو تورمنتوزو » أى « رأس الزوابع » ــ فدهمتهم هناك زوبعة هائلة شقت الصارية الكبرى وأسقطت الثانية . فأصلح البحارة الضرر بقدر ما استطاعوا ، حتى أعياهم الجهد وترنحوا من النصب ، وراحت السفينة تزحف كالجريح ، على طول الساحل الافريقى ، زحفا متثاقلا بطيئا ، وتصعد من جوفها أنين الألم ...

ولكن الطاغية الجائر لا يتركهم لحظة واحدة وهم فى مهب العاصفة أو ظلال الهدوء ، فى الليل أو فى النهار ، فان شبح المجاعة الاشهب يقهقه ! .. وقد ابتكر فى هذه المرة نوعا من التعذيب جديدا ، أكثر فظاعة من جميع أنواع التعذيب الاخرى ... فان قاع السفينة ليس فارغا ، كما كان عند اجتياز المحيط الهادىء ، وانما هو ملآن بصنوف من السلع ، منها سبعمائة قنطار (١) من الابزار ، أى ما يكفى لتتبيل الطعام لمئات الآلاف من الناس . ولكن ، ما فائدة التوابل لبحارة سفينة جائعين ؟ وهل فى وسعهم أن يأكلوا حبوب

---

(١) قنطار ــ وفى بعض اللغات الاوربية « كنتال » وهو وزن كان ولايزال يختلف باختلاف البلدان ، مثل الليبرة . ويبدو ان القنطار ــ أو الكنتال ــ الذى نحن بصدده كان يوازى جزءا من عشرين من الطن بحساب ذلك العهد

البهار ، أو يستعيضوا عن الخبز بالقــرفة أو جوز الطيب ؟ وعنــدما يسخر القدر يموت الانسان ظمأ فى ثبج البحر ، ولكن القدر يبلغ أقصى سخرياته عندما يموت بحارة السفينة « فكتوريا » من الجوع وسط جبال من الأبزار والتوابل

كل يوم تلقى فى البحر جثث جــديدة ... ولما صارت السفينة ، فى اليوم التاسع من شهر يوليو ، على مرأى من جزر الرأس الاخضر ، بعد رحلة استغرقت خمسة أشهر ، لم يكن باقيا من الاسبانيين غير واحد وثلاثين رجلا وكانوا سبعة وأربعين عندما غادرت الســفينة جزيرة تيمور . أما أبنـــاء الجزر ، فلم يكن باقيا منهم غير ثلاثة فقط ، وكانوا تسعة عشر رجلا !

ان جزر الرأس الاخضر مســـتعمرة برتغالية . ومدينة سنتياغو ميناء برتغالى . والوقوف هناك معناه الاستسلام للعدو ، والقاء السلاح على عتبة النصر . ولكن لم يبق فى السفينة من المؤن ما يكفى لأكثر من ثلاثة أيام على أبعـــد تقــدير . والجوع لا يترك لهم حرية الاختيـــار : فيجب أن ينزلوا الى البر ، ولكنهم سيلجأون الى حيلة جريئة ...

فقبل أن يرسل دلكانو رجاله الى الميناء ، جعلهم يقسمون بألا يبوحوا للبرتغاليين بأنهم البقيـــة الباقية من عمـارة ماجلان ــ وعليهم أن يدعوا أن عاصفة قذفت بهم من أمريكا ، أى من أرض اسبانية . ومنظر الصارية المصدوعة ، وحالة السفينة السيئة ، كل ذلك يحمل على تصديق الرواية ...

ورحب البرتغاليون بركاب الزورق ، على سبيل التضامن ، دون أن يوجهوا اليهم كثيرا من الأسئلة ، أو يرسلوا موظفين

لفحص شحنة السفينة • ثم أعطوا الاسبانيين كمية كافية من الماء وزادا طازجا • وعاد الزورق الى السفينة مرة فثانية فثالثة ، محملا بالمؤن ما يكفي للوصول الى اشبيلية• وللمرة الرابعة ، أرسـل دلكانو الزورق ليأخـذ كمية من الارز والفاكهة • وهذه المرة ستكون الاخيرة • فالسفينة ستبحر بعد ذلك بلا ابطاء •••

ولكن ، ما أغرب هذا !•• ان الزورق لم يعد • وما لبث دلكانو أن أدرك ما حدث ••• ان أحد البحارة قد تفوه غير متبصر بعبارات نمت عليهم•أو حاول أن يبيع بعض التوابل مقابل الحصول على الخمر ••• وعلى كل حال ، فانه يبدو أن البرتغاليين قد عرفوا سفينة ماجلان ، وفطن دلكانو الى أنهم يعدون مركبا على الساحل لمنع سفينته من السفر •••

اذن ، فالجرأة وحدها تنقذه من هذه الورطة • وسيترك الرفاق على البر ، وليحدث لهم ما يحدث !••

وأصدر دلكانو أمره برفع المراسى ونشر القلوع بسرعة ، بالرغم من أن عددالبحارة الباقين على السفينة معه لا يتجاوز الثمانية عشر ، وهو عدد لا يكفى لادارة السفينة المنهكة التى تتسرب المياه الى داخلها ، حتى الموانىء الاسبانية •••

انه لفرار ، نعم : ولكنه فرار الى النصر !

وبالرغم من أن الوقوف فى جـزر الرأس الاخضر كان قصيرا خطيرا ، فان بيجافيتا قد لمس هنـاك ، فى اللحظة الاخيرة ، احدى العجائب التى قام بهذه الرحلة من أجلها•• ففى ذلك المكان ، دون الرجل ظاهرة جديدة مدهشة، سوف تثير فيما بعد اهتمام العالم كله ، فان البحارة الذين نزلوا

الى البر لشراء المؤن ، عادوا يقولون ان ذلك اليوم هو يوم « الخميس » فى حين أن من فى السفينة قد أكد لهم أن ذلك اليوم هو يوم «الاربعاء» ، فدهش بيجافيتا ، لأنه فى خلال الرحلة كلها ، قد دون مذكراته يوما فيوما ، وسجل بانتظام أسماء أيام الاسبوع ، فهل يكون قد نسى يوما ؟

سأل البحارآلفو ، المكلف بدفة القيـادة • والذى دون الايام أيضا فى سجله اليومى ، فاتضح له أن ذلك اليـوم هو بلا شك يوم « الاربعاء » وعلى هذا ، لابد من القول بأن السفن فى ذهابها باطراد الى جهة الغرب ، قد كسبت يوما، بكيفية غير مفهومة !

ولما أفضى بيجافيتا بخبر هذه الظاهرة العجيبة ، دهش لها العالم : فقد رفع الستار عن سر جديد ، لم يفطن اليه حكماء اليونان ، ولا بطليموس ، ولا أرسطو ، ويعودالفضل فى اكتشافه الى رحلة ماجلان

وهذه المعرفة الجديدة ، التى تثبت أن من يطوف حول الارض سائرا فى اتجـاه دورانها يكسب جزءا من الوقت ينتزعه من اللانهائية ، هذه المعرفة قد أثارت اهتمام العلماء فى القرن السادس عشر ، بقدر ما أثارت اهتمام العلماء فى عصرنا هذا نظرية النسبية • وقد أسرع بيير مريتر الى أحد العلماء ليشرح له هذه الظاهرة، ثم شرحها بدوره للامبراطور وللبابا

وهكذا ، بينما كان الآخرون يجيئون بأكياس التوابل ، كان ذلك الفارس من « فرسـان رودس » يجىء من هـذه الرحلة بما هو أثمن من كل شىء مادى : بمعرفة جديدة !

لكن السفينة لم تصل بعد الى نهاية طوافها • فانها منهكة مفككة تجر نفسها متثـــاقلة بين الأمواج • وقد كان عدد رجالها ستة وستين عندما غادرت جزر التوابل ، فلم يبق منهم الآن غير ثمانية عشر • وهى مفتقرة فى هذه المرحلة خاصة ، الى أذرع قوية لضمان سيرها • فهى مهددة بكارثة فى الوقت الذى توشك أن تدرك فيه الهـدف • وأخشاب السفينة القديمة لم تعد متماسكة • والمياه تتسرب كل يوم من خلل الشقوق • وقد حاول البحـــارة بادىء الأمر أن يعالجوا هذا التسرب باستعمال المضخة • ولكن ذلك لم يكن كافيا • وأصبح لابد من القاء جزء من الشحنة فى البحر ، لكى ينقص من غوص الســـفينة فى الماء • غـير أن دلكانو لا يريد أن يمس ما هو ملك للامبراطور

ظل البحارة المنهكون يدفعون الماء الى الخـارج بمضختين ليلا ونهارا•وفى الوقت ذاته ،كان عليهم أن يتولوا تصريف الاعمال اليومية التى لابد منها : شد القلوع ، وادارة الدفة، ومراقبة البحر من برج الحراسة ، الى غير ذلك مما تتطلبه السفينة فى سيرها•وان هذا لعمل مضن بالنسبة الى رجال قليلى العدد • فالبحارة لا يذوقون النوم منـــذ أيام ، وقد أصبحوا غير قادرين على المقاومة ، فانهم يتنقلون من مكان الى مكان متمايلين كأنهم يمشون نائمين • وقد كتب دلكانو فى تقريره للامبراطور : «لم يتعب أحد قط كما تعب هؤلاء!»

ومع ذلك فان كل واحد منهم مضـطر أن يقوم بأضعاف العمل المنوط به • وهم يفعلون ذلك ويبذلون فيه البقيـة الباقية من قواهم ، لأنهم شارفوا الهـــدف • فقد غادروا

جزر الرأس الأخضر فى ١٣ يوليو ٠ وفى ٤ سبتمبر سنة ١٥٢٢ ، انبعث هتاف مفرح : رأس فنسان فى الأفق !

ان أوروبا تنتهى فى نظرنا عند ذلك المكان٠وأما بالنسبة اليهم ، هم الذين طافوا حول العالم ، فان أوروبا تبدأ هناك، وهناك تبدأ أرض الوطن !

برزت الصخرة العمودية من الماء رويدا رويدا ، وجعلت الشجاعة تعاودهم كلما زاد اقترابهم منها : الى الامام ! الى الامام !٠٠ لم يبق أمامهم غير يومين وليلتين !٠٠ لم يبق أمامهم غير ليلتين ويوم !٠٠لم يبق أمامهم غير يوم وليلة!٠٠ لم يبق أمامهم غير ليلة ، ليلة واحدة !

وأخيرا ، تزاحموا جميعا على ظهر السفينة ، وقد تهللت أساريرهم فرحا ٠٠٠ فها قد لمح فى الأفق خيط فضى دقيق ٠٠ هو نهر جوادلكيفير ـ « الوادى الكبير » الذى يصب فى البحر عند مرفأ سان لوكار دى براميدا ٠ ومن هنا أقلعت منذ ثلاث سنوات بقيادة ماجلان ، خمس سفن تحمل مائتين وخمسة وستين رجلا ٠ واليوم ، تقترب أصغر السفن الخمس وحدها ، وتلقى مراسيها فى المكان ذاته ، وينزل منها ثمانية عشر رجلا يتمايلون فى مشيتهم ، ويحبون على ركبهم ، ويقبلون أرض الوطن الطيبة الثابتة

وفى ٦ سبتمبر سنة ١٥٢٢ ، انتهت أعظم رحلة فى البحر عرفها التاريخ

□

وعلى أثر النزول الى البر ،كان أول ما فعله دلكانو رسالة



خريطة عامة تبين رحلة ماجلان حول الأرض
كما ترى تفاصيلها في هذا الكتاب
آسيا
أوربا
أمريكا الشمالية
اليابان
الهند
الهند الصينية
إفريقيا
المحيط الأطلنطي
أمريكا الجنوبية
المحيط الباسفيكي
أستراليا
المحيط الهندي
نيوزيلندا
شمال
مضيق ماجلان

الى الامبراطور تحمل اليه النبأ العظيم • ثم امتدت أيدى البحارة بلهفة لأخذ أرغفة الخبز الساخن الطازج الذى قدم اليهم • فانهم منذ سنوات لم يضموا أصابعهم على هذا اللباب الجيد اللين ، ولم يذوقوا خمر الوطن ، ولحمه ، وفاكهته • والناس ينظرون اليهم كأنهم هاربون من الجحيم

وبعد أن أكلوا وشبعوا ، ألقوا بأنفسهم على فراشهم وناموا ، ناموا طول الليل ، نوما هادئا ، للمرة الاولى منذ أعوام ، وقد ضموا قلبهم الى قلب الوطن !

وفى اليوم التالى ، أقلعت السفينة « فيكتوريا » التى شرفت الاسم الذى تحمله ، ودخلت فى الوادى الكبير ، متجهة الى اشبيلية • ومن فوق السفن التى التقوا بها ، كان الناس ينظرون اليهم بدهشة ، وينادونهم : من أنتم ؟ وما هذه السفينة ؟! فلم يعد أحد يذكرهم • ومن زمن بعيد ، ظنت اسبانيا ، وظن العالم بأسره، أن سفن ماجلان غرقت• وها هى الآن هذه السفينة الصغيرة المنتصرة ، تعود ، متقدمة بعناء ولكن بكبرياء ، نحو المجد الذى ينتظرها !

وأخيرا ، ها هو ذا برج جيرالدا ، برج أشبيلية الابيض، يلمع من بعيد • والعين ترى مرفأ « لاس مويلاس » الذى هبطت منه السفن الخمس الى البحر .

وصاح دلكانو آمرا : « الى المدافع ! »

وكان هذا آخر أمر أصدره فى هذه الرحلة • وقصفت المدافع !

على هذا النحو كانت تحية وداعهم للوطن منذ ثلاثة أعوام • وعلى هذا النحو كانت تحيتهم للمضيق الذى

وجدوه • وعلى هذا النحو كانت تحيتهم للمحيط الهادىء عندما وجوه • وبمثل هذه الطلقات حيوا جزر فيليبين التى اكتشفوها ، وأعلنوا انجاز المهمة التى فرضها ماجلان على نفسه ، وهى الوصول الى جزر التوابل بطريق الغرب • وعلى هذا النحو كانت تحيتهم عندما ودعوا رفاقهم المتخلفين فى تيدور

ولكن هزيم المدافع لم يكن يوما صـافيا مفرحا كما هو اليوم ، لكأنه يقول : « لقـد عدنا ا •• لقد صنعنا ما لم يصنعه أحد من قبلنا : الطواف حول الكرة الارضية ! »

الموتى دائماً مخطئون

تجمع الناس مدهوشين على شاطىء النهر فى أشبيلية ، ليشاهدوا هذه السفينة المجيدة ــ كما يقــول أوفيدو ــ التى تعد الرحلة التى قامت بها أعظم فوز تحقـــق منذ أن خلق العالم ! »

واتجهت الانظار الى البحارة الثمانية عشر ، ينـــزلون واحدا واحدا من السفينة ، ويطأون اليابسة بخطى متعثرة، انهم مرهقون ، ضعفاء ، مرضى ، هؤلاء الابطال المجهولون، الذين جعلتهم السنوات الثلاث المروعة يشـــيخون عشر سنوات ! فالناس يهتفـــون لهم ولكنم يرثون لحالهـــم ، ويقدمون الطعام،ويدعونهم للدخول الى البيوت ،ويرجونهم أن يقصوا عليهم مغامراتهم وآلامهم

ولكنهم يرفضون .. فيما بعد ، سيتكلمون فيما بعد ! أما الآن ، فليسمح لهم الناس بأن يوفوا بالنذر الذى نذروه على أنفسهم فى أشد ساعات الخطر . وفى سكون خاشـــع وقف الناس صفين ، وتبعوهم بالانظار وهم ذاهبون ،حفاة الاقدام ، مجللين بالاكفان ، حاملين الشموع بأيديهم ، الى كنيسة سانتاماريا !..

فالى تلك الكنيسة التى صلوا فيها وتلقوا البركة يوم الرحيل ، جاءوا اليوم يشكرون الله على النعمـــة العظيمة التى أغدقها عليهم ، اذ أنقذهم من الهـــلاك ، وأعادهم الى الوطن ..

وانبعثت أنغام الأرغن مرة أخرى . ومرة أخرى وقف الكاهن يصلى ويبارك . وبعد أن توجه البحـــارة الثمانية عشر بآيات الشكر الى العلى القادر ، راحوا يرتلون صـــلاة

الموتى عن نفس قائدهم واخوانهم الغائبين . فأين هم ، أولئك الذين كانوا هنا ، فى نفس هذا المكان ، يرمقون أمير البحر بأنظارهم ، وهو ينشر العلم الحريرى الذى أهداه الملك اليه ، والذى باركه الكاهن ؟ لقد هلكوا فى البحار ، أو ذبحهم الهنود ، أو ماتوا من الجوع والبرد ، أو ضاعوا ، أو وقعوا فى الأسر

وعليهم هم وحدهم وقع اختيار القدر - ولا أحد يعلم السبب - ليذوقوا لذة النصر المجيد !

□

وفى أثناء ذلك ، كان الخبر قد انتشر فى أنحاء أوربا ، وكانت الحماسة التى أثارها ذلك الفتح الفكرى العظيم عامة شاملة . والذين تولوا المشروع أنفسهم ، أى أعضاء بيت الهند وكريستوفر دى هارو ، كانوا من ناحيتهم أيضا مسرورين مرتاحين . فقد سبق لهم أن دونوا فى حساب الخسائر والارباح الملايين الثمانية التى دفعوها بتجهيز السفن . وها هى الشحنة التى تحملها هذه السفينة الصغيرة العائدة تكفى لتغطية النفقات ، بل تترك أرباحا تذكر . فان كمية التوابل التى جاءت بها السفينة «فكتوريا» من جزر ملوك ، ومقدارها خمسمائة وعشرون قنطارا (٢٦ طنا) عادت بربح صاف قدره خمسمائة دوكا . واذن ، فان شحنة هذه السفينة وحدها قد عوضتهم عن ضياع السفن الاربع الاخرى ، اذا أسقطنا من حسابنا البحارة المئتين الذين فقدوا ! ..

وفى العـــالم كله عشرة رجال فقط ، أثارت الذعر فى نفوسهم عودة سفينة من سفن ماجلان الى ميناء اشبيلية • أولئك هم الربابنة والبحـــارة العصـــاة ، الذين فروا من القافلة بالسفينة « سان أنطونيو » وعادوا الى بلادهم قبل ذلك بسنة • فان خبر عودة السفينة « فكتوريا » قد رن فى آذانهم رنينا رهيبا ، اذ انهم كانوا يأملون أن لا يعود ذلك الشاهد الخطر أبدا • وقد عبروا أمام العدالة بصراحة عن ذلك الأمل الذى داعب نفوسهم ، وباهوا أمام لجنـــة التحقيق بحادث تمردهم كأنه عمل وطنى ، لانهـم كانوا يعتقدون اعتقادا راسخا أن السفن الاخرى بمن فيها من بحارة ترقد من زمن بعيد فى قرار المحيط • ولم يفوهوا بكلمة طبعا عن اكتشاف ماجلان للمضيق فى الوقت الذى تخلوا فيه عنه ، بل أشاروا فقط الى « خليج » دخلوا فيه، وقالوا ان ذلك الممر الذى يبحث عنه ماجلان لا فائدة منه• ولكنهم كانوا من ناحية أخرى قد اتهموا ماجلان بأنه فتك بالرجال الذين وضع الملك فيهم ثقته لكى يسلم السفن الى البرتغاليين ، وتمكنوا هم من انقاذ هـذه السفينة فقط ، بالقبض على مسكيتا الذى عينه ماجلان قائدا لها خلافا لكل قانون

انهيئة المحكمة لم تصدق أقوال أولئكالبحارةالهاربين، ولم تكن متحيزة حين قررت أن موقف الفريقين يدعو الى الشك والريبة • وأرسل الجميع الىالسجن، مسكيتا الامين والضباط المتمردون ورفاقهم •وصدر أمر الى زوجةماجلان بأن لا تغادر المدينة ــ ولم يكن أحد يعلم بعد انها كانت فى ذلك الوقت قد أصبحت أرملة بموت زوجها • وكان رأى

المحكمة انه لا بد من انتظار عودة السفن الاخـــرى لمعرفة حقيقة ما حدث. فلا غرابة اذن أن تكون طلقات المدافع من السفينة « فكتوريا » قد مزقت آذان العصاة ، فهى تنذرهم بأنهم هالكون لا محالة ! فقد فاز ماجلان ، وسوف ينتقم انتقاما قاسيا ممن خانوا القسم وتخلوا عنه وكبلوا بالحديد الربان الذى اختاره بنفسه

وتنفسوا الصعداء لما بلغهم أن القائد العام قد هلك ! فالمدعى الحقيقى لن يتكلم اذن !.. وتزايد اطمئنانهـــم اذ علموا أن دلكانو هو الذى عاد بالسفينة « فكتـــوريا » ، دلكانو الذى كان شريكا لهم فى حادث العصيان بخليـــج سان جوليان . ولن يتهمهم دلكانو بجريمـــة كان شريكا فيها ، ولن يشهد عليهم بل لهم !

وأثبتت الحوادث صدق ظنهم ...

نعم لقد أطلق سراح مسكيتا ومنح تعويضـــا . ولكن الآخرين أيضا خرجوا من السجن بمساعدة دلكانو . وفى غمرة الفرح العامة نسى الناس حادث العصيان: فان الاحياء دائما على حق والموتى هم المخطئون !

□

ان بيجافيتا يسكت ولكن هذا لا يمنعه من التفكير .وقد أدرك هذا الشاب المخلص الحساس مبلغ الظلم الذى يقوم فى هذا العالم مقام القانون !.. ولهذا ، فانه ينسحب بلا ضوضاء . وليضرب المتملقون فى البلاط نطاقا من الصمت حول ماجلان ، وليتقدم الى الامام أولئك المتعطشـــون الى

التكريم !.. أما هو ، فانه يعرف جيدا صاحب الفضل كله في النصر . واذا كان لا يستطيع الآن أن يقول شيئا، فانه يعتزم ، حبا للانصاف ، أن يعلن على الاعقاب المقبلة فضل المنتصر الحقيقى !

ان بيجافيتا ، فى وصف المرحلة الاخيرة ، أثناء العودة الى الوطن ، لم يذكر مرة واحدة اسم دلكانو . وهو يلجأ الى عبارات كهذه : « ذهبنا .. وفعلنا .. وقررنا .. » فلينل هذا المحظوظ اذن مكافأته من البلاط . أما مجـــد الرحلة ونجاحها ، فمن نصيب الرجل الذى ليس فى هذا العالم نوع من التكريم يكفى لمكافأته !

وانحاز بيجافيتا الى الرجل المغلوب على أمره ، وكتب يمجد ذلك الذى أصبح فى عالم الاموات، مدفوعا بالاخلاص والوفاء . وقد جاء فى مقدمة الكتاب الذى أهداه لرئيس جمعية فرسان رودس : « آمل أن لا ينطفىء أبدا مجد ذلك الربان العظيم . فبين الفضائل الكثيرة التى كان يتحـــلى بها ، فضيلة واحدة جديرة بالقسط الاوفى من الاعجاب ، فقد كان دائما وفى أشد المحن وطأة ، أكثر الجميع ثباتا وحزما ، فاحتمل الجوع بصبر يفوق صبر الآخرين ، ولم يكن على وجه الارض انسان أوسع منه خبرة فى علم الخرائط وفن الملاحة . والدليل على ذلك انه قام بأعمال لم يقم بها أحد غيره من قبل ! »

☐

كثيرا ما يكشف لنا المـوت وحده عن السر الكامن فى

أعماق الشخصيات الفذة · فان الناحية الرهيبة في مصير ماجلان قد تجلت في الوقت الذي انتصرت فيه فكرته · وقد قدر لهذا الرجل أن يحمل عبء مشروع عظيم ، دون أن ينعم بنجاح ذلك المشروع · فالاقدار أدخرت هذا الرجل للعمل فقط ، وهو الرجل الصامت العبوس المتحفظ ،الذى كان دائما على أهبة التضحية بكل شيء ، حتى حياته ، في سبيل تحقيق فكرته ·· فالاختيار قد وقع عليه ليضطلع بالمجهود لا لينعم بالنصر

وكان القدر قاسيا على ماجلان بقدر ما كان ماجلان نفسه قاسيا على الجميع ، ولم يحقق له غير شيء واحد ، هو الشيء الذى طالما تاق اليه بكل جوارحه : اكتشاف الطريق التى تسمح بالطواف حول الارض · اما اجتياز هذه الطريق كلها ، فان القدر يحرمه منه · فهو ينظر الى اكليل النصر ويضم عليه أصابعه · ولكن ، متى حاول أن يضع ذلك الاكليل على رأسه ، فان القدر يصيح به : « كفى ! »

فهرس

صفحة

وكلاء مجلات دار الهلال

بيروت ولبنان :	السيد خليل طعمه ــ السور ــ العسيلى · المدخل الشمالى · ص · ب ٥٤٣ بيروت
حلب :	الشيخ طاهر النعسانى
حماه :	السيد سعيد نجار
اللاذقية :	السيد نخله سكاف
حمص :	السيد عبد السلام السباعى ــ ص·ب٤٩
مكة المكرمة :	السيد هاشم بن على نحاس ــص·ب ٩٧
بغداد والعراق:	السيد محمد جواد حيدر ــ مكتبة المعارفــ بسوق السراى ــ بغداد
البحرين والخليج الفارسى :	السيد مؤيد أحمد المؤيد ــ مكتبة المؤيد ــ البحرين
ساحل الذهب:	The Queensway Stores, P.O. Box 400. Accra, Gold Coast, B.W.A.
نيجريا :	Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street, P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.
المغرب :	Mr. Abdella B.M. Assoub, B.P., 156 Auad Ahardan No. 18, Tanger, Maroc.
انجلترا :	مكتب توزيع المطبوعات العربية Arabic Publications Distribution Bureau 15 Queensthorpe Road, London, S.E. 26.

هذا الكتاب

ماجلان : قاهر البحار .. هو الـكتاب الثانى من سلسلة «كتاب الهلال» . وقد رأينا أن نقدم لقرائنا بعد عبقرية محمد الروحية السماوية،عبقرية أخرى من نوع جديد ، ومعجزة من معجزات التاريخ التى غيرت وجه العالم . وهى أول رحلة يقوم بها عبقرى جرىء حول الارض بارادة حديدية ، وايمان قوى ، وبطولة لم يسبقه اليها أحد من عمالقة البحار

ففى هذا الـكتاب يقص ستيفان زفايج قصة ذلك البطل العظيم الذى قهر المحيطات الشاسعة فى أوائل القرن السادس عشر ، وشـق طرق الملاحة وعبـر أهوالها لخير الانسـانية ، واثبت برحلته عمليا أن الأرض كروية

وكان زفايج مؤلف الكتـاب قد رحل الى امريكا الجنوبية على باخرة فخمة توافرت فيها أسباب الراحة، وفى أثناء هذه الرحلة جعـل يفكر فيما كانت عليه الاسفار فى الماضى ، وما كابده المكتشفون الاولون عناء ، وتعرضوا له من أخطار فى ارتياد البحار أهداف مجهولة ، ومن هنا نبتت عنده فكرة وضع الكتاب القيم عن حياة فرناندو ماجلانيس المعر باسم « ماجلان » أول من طاف العالم

